الكتاب الأول

تمهيد

١٣٠٠ – ١٣٧٧

obeikandl.com

الباب الاول

عصر پترارك وبوكاتشيو

١٣٠٤ — ١٣٧٥

الفصل الأول

أبو النهضة

فى عام ١٣٠٢ نفسه ، أى فى العام الذى انتزع فيه حزب **الأشراف السود** حكم مدينة فلورنس بالقوة ، ونفوا دانتى وغيره من حزب الطبقة الوسطى **البيض** اتهم الأشراف الظافرون محامياً من البيض هو السِّر Ser (أى السيد أو الرئيس) پتراتشيو Petracceo بأنه زور وثيقة قانونية . ووصف پتراتشيو التهمة بأنها حجة ماكرة للقضاء على حياته السياسية ، فأبى أن يمثل أمام القضاء ليحاكم عليها ، فحكم عليه فى غيابه ، وخير بين أن يؤدى غرامة باعظة أو تقطع يده اليمنى . وإذ كان قد ظل يرفض الحضور أمام المحكمة فقد صدر الأمر بنفيه من فلورنس ، وصودرت أملاكه . فما كان منه إلا أن فر إلى أريتسو Arezzo هو وزوجته . وفى هذه المدينة طلع فرانتسكو بترارکا Francesco Petrarca (كما سمى نفسه فيما بعد تظرفاً) على العالم على حين غفلة بعد عامين من نفيه .

وكانت بلدة أريتسو الصغيرة جِبِلِية Ghibeline عارمة (أى تدين بالولاء السياسى للإمبراطورية الرومانية المقدسة لا للبابوات) ، فكانت لذلك تعانى فى القرن الرابع عشر كل ما تعانيه المدن الإيطالية من المحن . وكانت

فلورنس الجلفية Guelfic — أى التى تناصر البابوات على الأباطرة فى النزاع القائم بينهما على السلطان السياسى فى إيطاليا — قد أوقعت بأريتسو هزيمة منكرة عند كمپلدينو Campaldino (١١٨٩) وهى المعركة التى حارب فيها دانتى ؛ فلما حل عام ١٣٤٠ نفى جميع الجبليين الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسبعين من بلدة أريتسو ، ثم خضعت تلك البلدة نفسها نهائياً لحكم فلورنس فى عام ١٣٨٤ . وكانت أريتسو هذه هى البلدة التى ولد فيها ماسناس Maccenas فى الزمن القديم ، وهى التى شهدت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مولد چيورچيوڤاسارى Giorgio Vasari الذى أذاع شهرة النهضة ، وپيترو أريتينو Pietro Aretino الذى حط من شأنها وقتاً ما ؛ وأنجبت كل بلدة فى إيطاليا فى ذلك العهد عبقرياً من العباقرة ثم نفته منها .

وهرول السيد پتراتشيو نحو الشمال فى عام ١٣١٢ ليرحب بالإمبراطور هنرى السابع الذى كان يرجى فى ذلك الوقت أن ينقذ إيطاليا أو فى القليل من فيها من الجبليين . ولم يكن پتراتشيو فى ذلك العام يقل عن دانتى أملا وثقة فى المستقبل ، فنقل أسرته إلى پيزا Pisa وانتظر فيها القضاء على الجلفيين الفلورنسيين .

وكانت پيزا لا تزال حتى ذلك الوقت من بين مفاخر المدن الإيطالية ، نعم إن تدمير أسطولها على يد أهل چنوى فى عام ١٢٨٤ قد أفقدها بعض أملاكها ، وأنقص تجارتها ؛ وأن النزاع الذى قام بين الجبليين والجلفيين داخل أسوارها لم يترك لها من القوة ما تستطيع أن تفلت به من قبضة فلورنس التجارية صاحبة النزعة الاستعمارية ، والتى كانت تتوق إلى السيطرة على نهر الآرنو حتى مصبه . ولكن أهلها البواسل كانوا يزهون بكنائسها الرخامية الفخمة ، وأبراجها المزعزعة ، ومقابرها الشهيرة ، وذلك الحقل المقدس Campo Santo الذى ملئ مربعه الأوسط بثرى الأرض المقدسة ،

والذى زينت جدرانه بعد قليل من ذلك الوقت بمظلمات من صنع تلاميذ چيتو Giotto واللورندستى Lorenzetti ، والذى خلّدت قبوره المزدانة بالتماثيل ذكرى الموتى من الأبطال أو الأسخياء وإن لم يدم هذا التخليد إلا إلى حين . وفى جامعة پيزا عكف المشترع البارع بارتولوس Bartolus الساسوفرتووى of Sassoferratato بعد إنشائها بزمن وجيز على تعديل القانون الرومانى ليوائم حاجات العصر الذى كان يعيش فيه ، ولكنه صاغ علم القانون فى عبارات غريبة حمل عليه من أجلها پترارك وبوكاتشيو حملة شعواء . ولعل بارتولوس قد رأى من الحكمة أن تكون لغة القانون غامضة لأنه كان يبرر قتل الطغاة المستبدين ، وينكر على الحكومات مصادرة أملاك الناس إلا بعد الإجراءات القانونية الواجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال[1] .

وتوفى هنرى السابع (١٣١٣) قبل أن يقرر هل يكون إمبراطوراً رومانياً أو لا يكون : وابتهج جلفيو إيطاليا بوفاته ؛ ورأى السيد پتراتشيو أنه غير آمن على نفسه فى پيزا فهاجر منها هو وزوجته وابنته إلى أڤنيون القائمة على ضفة نهر الرون حيث كان البلاط البابوى قد أقيم من عهد قريب ، وحيث كانت التجارة آخذة فى الاتساع السريع ، فأتاحا فرصاً ثمينة للمحامى البارع فى مهنته . وركبت الأسرة سفينة شراعية سارت بمحاذاة الساحل إلى چنوى ، ولم ينس پترارك قط ما كان يتجلى أمامه من مناظر ساحل الرڤييرا الإيطالى الرائعة — من مدن كأنها التيجان على هامات جبال تنحدر إلى بحار زرقاء مخضرة ، يقول فيها الشاعر الشاب : « إنها أشبه بالسماء منها إلى الأرض[2] » . ووجدت الأسرة بلدة أڤنيون مليئة بأصحاب المراتب العالية ، فانتقلت منها إلى كارپنتراس Carpentras التى تبعد عنها نحو خمسة عشر ميلا نحو الشمال (١٣١٥) ، وقضى فرانتسكو فى هذه البلدة الثانية أربع سنين سعيداً فى تواكله وعدم مبالاته بما يحيط به : وانتهت السعادة حين أرسل إلى منپلييه (١٣١٩ — ١٣٢٣) ، ومنها إلى بولونيا (١٣٢٣ — ١٣٢٦) لدراسة القانون .

وكان من شأن بولونيا أن تسره ؛ فقد كانت مدينة جامعية ، مليئة بمرح الطلاب ومجونهم ، يغمرها جو التعليم ، وتحمس التفكير الحر المستقل ؛ وفى هذه المدينة كانت تدرس فى هذا القرن الرابع عشر أولى مناهج التشريح الآدمى ، وكانت فيها أستاذات من النساء بلغت بعضهن — مثل نوفيلا دندريا Novella d'Andrea (المتوفاة عام ١٣٦٦) — من الجاذبية حدا جعل الرواة يصفونها — وصفا خياليا بلا شك — بأنها كانت تحاضر من تحت قناع لئلا يشغل الطلاب بجمالها عن علمها . وكانت بلدية بولونيا من أوليات البلديات التى ألقت عن كاهلها نير الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأعلنت استقلالها بشئونها . وكانت منذ ذلك العهد البعيد وهو عام ١١٥٣ قد اختارت محافظها وظلت قرنين كاملين محافظة على حكومتها الدمقراطية ؛ ولكنها منيت فى عام ١٣٢٥ ، وپترارك مقيم فيها ، بهزيمة ساحقة على يد مودينا Modena لم يسعها معها إلا أن تضع نفسها تحت حماية البابوية ، فلما حل عام ١٣٢٧ ارتضت أن يكون قس معين من قبل البابا حاكما لها ، ونسجت حول هذه الفترة من تاريخها كثير من القصص المريرة .

وكان پترارك يحب الروح السائدة فى بولونيا ، ولكنه كان يبغض حرفية القانون : « وكان مما يتعارض مع ميولى ويؤلمنى أن أحصّل فنا لا أريد أن أمارسه ممارسة غير شريفة ، ولا أستطيع أن أمارسه بغير هذه الطريقة »[٢] . وكل ما كان يعنى به فى الرسائل القانونية هو « ما كان فيها من إشارات يخطئها الحصر للعصر الرومانى القديم » . ولهذا فإنه بدلا من أن يدرس القانون قرأ كل ما استطاع أن يجده من كتابات ڤرچيل ، وشيشرون ، وسنكا . وفتح هؤلاء أمامه عالما جديداً فى الفلسفة والفن الأدبى ، وشرع يفكر كما يفكرون ، ويتوق إلى أن يكتب كما يكتبون ؛ ولما توفى أبواه (١٣٢٦) هجر دراسة القانون ، وعاد إلى أڤنيون وألقى بنفسه فى غمار الشعر القديم وآداب الغرام .

ويقول إن يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذى وقعت فيه عيناه على المرأة التى كانت مفاتنها المتمنعة هى التى جعلته أشعر شعراء عصره ، وقد وصّفها وصفا مفصلا يفتتن به قارئه ، ولكنه حرص على الاحتفاظ بسرية شخصيتها حرصا حمل أصدقاءه على الظن أنها من مبتكرات خياله الشعرى ، وأن كل ما يبثها من عاطفة إنما هو من قبيل التسامح الشعرى لا أكثر ؛ ولكننا لا يزال فى وسعنا أن نرى على الصفحة الأولى من نسخته الخاصة من ديوان قرچيل ، التى تحرص مكتبة أمبروز بميلان على الاحتفاظ بها وتعدها من أثمن كنوزها ، لا نزال نرى الألفاظ التى كتبها بخطه فى عام ١٣٤٨ بنصها :

فى سنة ١٣٢٧ من ميلاد المسيح ، وفى اليوم السادس من شهر إبريل ، وفى الساعة الأولى ، وقعت عيناى فى كنيسة القديسة كلارا Santa Clara بأڤنيون على لورا Laura التى تمتاز بفضائلها ، والتى ذاعت شهرتها فى أغانى . وفى تلك المدينة نفسها ، وفى الشهر نفسه ، وفى اليوم السادس بعينه ، وفى الساعة الأولى ذاتها ، من عام ١٣٤٨ احتجب هذا الضوء من نهارنا .

ترى من كانت لورا هذه ؟ لقد سُجِّلت فى أڤنيون فى اليوم الثالث من أبريل عام ١٣٤٨ وصية أوصت بها سيدة تدعى لورا ده ساد Laura de Sade زوجة الكونت هيوج ده ساد Hugue de Sade التى ولدت له اثنى عشر طفلا . وأكبر الظن إن هذه هى السيدة التى كان يهيم بها الشاعر ، وكان زوجها من الأسلاف الأبعدين لأشهر رجل سادى فى التاريخ . وتصف الرواية المأثورة نقشا دقيقا يعزى إلى سيمون مرتينى Simone Martini محفوظ الآن بمكتبة فلورنس بأنه صورة لورا محبوبة پترارك ؛ والصورة ذات وجه رقيق ، وفم ظريف ، وأنف مستقيم ، وعينين ناعستين توحيان بالتواضع والتفكير . ولسنا نعرف أكانت لورا قد تزوجت أم كانت أما شابة حين وقعت عليها عين پترارك أول مرة ؛

ومهما يكن من أمرها فإنها تلقت هيامه بها فى هدوء ، وأبعدته عنها ، وشجعته فى هيامه بها بتمنعها وصدودها . ويدلنا على ما كان فى عاطفته نحوها من إخلاص فى بعض الأحيان تأنيب ضميره له لما كان فى هـــذه العاطفة من عنصر شهوانى ، وحمده الله على ما كان لعدم استجابتها لحبه من أثر فى تهذيب هذا الحب والسمو به :

وكان فى هذه الأثناء يعيش فى پروڤانس ، بلاد شعراء الفروسية الغزلين ، وكان صـــدى أغانيهم لا يزال يتردد فى أڤنيون ، وصار پترارك ، كما صار دانتى من قبله بجيل من الزمان من هؤلاء الشعراء الغزلين على غير علم منه ، يعبر عن عاطفته بألف حيلة وحيلة من الحيل الشعرية . وكان قرض الشعر وقتئذ من أسباب اللهو الشائعة . وقد بلغ من شيوعه أن شكا پترارك فى إحدى رسائله من أن المحامين ، ورجال الدين ، بل وخادمه الخاص نفسه قد عمدوا كلهم إلى قرض الشعر ، ويقول إنه يخشى ألا يمضى وقت طويل حتى « تشرع الماشية نفسها أن تخور شعرا »(٣) . وقد ورث عن بلاده بحر الأغانى ، وربط بينه وبين الشعر المقفى العسير الذى ظل مائة عام يشكل الشعر الإيطالى ويقف فى سبيله ؛ وألف فى خلال الإحدى والعشرين السنة التالية ، وهو سائر على ضفاف الجداول ، أو بين التلال ، أو راكع خاشع أثناء صلوات المساء أو القداس ، يتحسس طريقه بين صيغ الأفعال والصفات ، فى سكون حجرته ، نقول إنه ألف فى خلال هذه السنين سبع أغان ومائتى أغنية ، وقصائد أخرى متنوعة عن لورا الحية الولود . وجمعت هذه الأغنيات والقصائد فى نسخ مخطوطة وسميت الكنذسنيير Canzoniere أو كتاب الأغانى ، فأثارت خيال شباب إيطاليا ، ورجالها ، ورجال الدين فيها . ولم ير أحد حرجا فى أن مؤلفها ، حين لم يجد طريقا للرقى إلا طريق الكنيسة ، قد تيفخ(*)

( ) أى حلق شعر اليافوخ وهو كناية عن أنه انتظم فى سلك رجال الدين . (المترجم)

وانتظم فى المراتب الصغرى من مراتب الكنيسة ، وأخذ يسعى للحصول على الرتب الكهنوتية . وأما لورا نفسها فلعلها قد اعتراها الخجل ، واهتزت مشاعرها — حين سمعت أن شَعرها ، وأتفها ، وشنتيها . . . كانت يتغنى بها من البحر الأدرياوى إلى نهر الرون . ولم يحدث قط. من قبل فيما أنقذ من الضياع من أدب العالم أن عبر إنسان عن عاطفة الحب هذا التعبير الكامل المختلف الأنواع أو بمثل هذه الأساليب الشعرية التى بذل فيها الكثير من الجهد والعناء ؛ ففيه نجد كل تلك الأوهام المتكلفة الظريفة المنبعثة عن الرغبات المصوغة شعرا ، ونجد شعلة الحب الملتهبة قد شذبت تشذيبا عجيبا حتى احتواها الوزن والقافية . وفى هذا يقول الشاعر نفسه :

« ما من صخرة ، مهما بردت ، إلا ستشتعل من هذه الساعة وتحترق تحسراً إذا مستها أغانى » .

ولكن الشعب الإيطالى قد تلقى هذه المعانى الحلوة مصوغة فى أروع ما عرفته لغته من الأنغام الموسيقية : رقيقة ، ظريفة ، منسجمة ، مزدانة بالخيال الساطع الوقاد ، الذى يبدو دانتى بإزائه فى بعض الأحيان خشناً فجًّا ، فها هى ذى الآن تلك اللغة الفخمة المجيدة التى انتصرت فيها الحركات على الحروف الساكنة ، قد بلغت الآن درجة سامية من الجمال لم ترق إليها لغة ما إلى يومنا هذا . إن فى وسع الأجنبى الذى ليس من أهل هذه اللغة أن يترجم ما فيها من الأفكار ، ولكن منذا الذى يستطيع أن يترجم ما فيها من موسيقى ؟ :

فى أية مملكة ذات سناء ، بل فى أى ميدان من ميادين الفكر المتألق
عثرت الطبيعة على النموذج الذى صاغت على مثاله
هذه الصورة الرقيقة الباهرة التى تمثل هنا
على ظهر الأرض ما صنعته الطبيعة فى السماء ؟
وأية حورية من ساكنات عيون الماء ، وأية روح من أرواح الحراج

نشرت مثل هذه الذؤابات الذهبية
على متن الهواء ؟ وأى قلب عرف أمثال هذه الفضائل ؟
وإن كانت أكبر فضائلها قد انطوت على موتى ؛
إن من لا يتطلع إلى عينيها اللتين اكتمل فيهما الجمال
إنما يبحث عن الجمال السماوى بلا جدوى ؛
ومن لا يرى هاتين المقلتين النيرتين الزرقاوين تشعان الضياء
لا يعرف كيف يذعن الحب ويصد
وليس يعرف حلو أنفاسها إلا من عرف
حلو حديثها وضحكها

ولقد هيأت لپترارك قصائده ، وفكاهته المرحة ، وإحساسه المرهف بالجمال فى المرأة وفى الطبيعة ، وفى السلوك ، والآداب ، والفنون ، مكاناً فى المجتمع المثقف ؛ ولم يكن تنديده بأخلاق رجال الدين فى أڤنيون يمنع عظماء هؤلاء الرجال من أمثال الأسقف جياكومو كولنا Qiacomo Colonna أو أخاه الكردنال چيوڤنى كولنا أن يعرضا عليه ضيافتهما ومناصرتهما ؛ وقد فعل ما تفعله الكثرة الغالبة منا فاستمتع وغفر قبل أن يمل ويلعن ؛ فقد كان يلهو مع محظية له بين الفترات التى ينشد فيها أغانيه للورا ، وولد له طفلان غير شرعيين . ووجد متسعاً من الوقت للأسفار ، وجمع فيما يظهر مالا موفوراً ، فنحن نجده فى باريس عام ١٣٣١ ، ثم نجده بعدئذ فى فلاندرز وألمانيا ، ثم فى رومة عام ١٣٣٦ يحل ضيفا على آل كولنا Colonna . وقد تركت خرائب سوق رومة الكبرى أعمق الأثر فى نفسه ، فقد كشفت له عن قوة وفخامة قديمتين لا تتفقان مع ما كانت عليه تلك العاصمة المهجورة فى العصور الوسطى من فقر وقذارة ، وألح على خمسة من البابوات متعاقبين أن يتركوا أڤنيون ويعودوا إلى رومة ؛ وإن كان هو نفسه قد غادر رومة وعاد إلى أڤنيون .

(الخريطة رقم ١)

obeikandl.com

وعاش سبع سنين بين أسفاره فى قصر الكردنال كولنا فى هذه المدينة الثانية ، كان يجتمع فيها بأظرف العلماء ، ورجال الدين ، والمحامين ، وحكام إيطاليا ، وفرنسا ؛ وإنجلترا ، ويوحى إليهم ببعض تحمسه للآداب القديمة ، ولكنه كان يُغضبه ما فى أڤنيون من فساد ورِشا وخصام رجال الدين ، وما يستمتعون به من فراغ منهك قتال ، واختلاط الكرادلة والسرارى ، والنزول بالمسيحية إلى الشئون الدنيوية . فلما كان عام ١٣٣٧ ابتاع له منزلا صغيراً فى فوكلوز Vaucluse « الوادى المغلق » — الذى يبعد عن أڤنيون عشرين ميلا جهة الشرق . ويجتاز الإنسان مناظر فخمة ذات روعة ليصل إلى ذلك المكان المنعزل ، فلا يتمالك نفسه من الدهشة حين يشهد كوخاً صغيراً قائماً أمام صخرة تعلوها أجراف شامخة وعرة ، ولكنه يلاطفه انسياب نهر السورج Sorgue الهادئ الرجراج . ولم يستبق بترارك روسو إلى التسامى العاطفى بحبه فحسب ، بل استبقه فوق ذلك إلى المتعة التى كان يستمدها من المناظر الطبيعية . انظر مثلا إلى ما كتبه إلى صديق له يقول : « ألا ليتك تعرف ما أحس به من البهجة وأنا أجول ، حراً وحيداً ، بين الجبال والغابات ، ومجارى الماء » . وفى عام ١٣٣٦ ضرب المثل لغيره من السياح بأن تسلق قمة ڤنتو Ventoux (التى تعلو ٦٢١٤ قدماً) لا لشىء إلا الرياضة ، واجتلاء ما حولها من المناظر ، وما يشعر به المنتصر من زهو وخيلاء . وكان وهو فى فوكلوز فى ذلك الوقت يرتدى زى الفلاح العامل ، ويصيد السمك فى الغدير ، ويرتاض فى حديقتين ، ويقنع « بكلب واحد وخادمين لا أكثر » . ولم يكن يندم على شىء (لأن هيامه بلورا قد انصرف فى أشعار الصيد) إلا على شدة بعده عن إيطاليا وشدة قربه من أڤنيون .

ومن هذه البقعة الصغيرة من الأرض أثار پترارك نصف العالم الأدبى . وكان يحب أن يكتب الرسائل الطوال لأصدقائه ، وإلى البابوات والملوك ، والأموات من المؤلفين ، وإلى الأبناء الذين لم يولدوا بعد . وكان يحتفظ

بصور من هذه الرسائل ؛ ولما تقدمت به السن كان يسلى كبرياءه بمراجعتها وإعدادها للنشر بعد وفاته . وتعد هذه الرسائل المصوغة فى لغة لاتينية جزلة ، ولكنها لاتضاهى لغة شيشرون ، أهم ما بقى من آثار قلمه . وقد وجه فى بعضها إلى الكنيسة نقداً بلغ من شدته أن أبقاها سراً فلم تنشر إلا بعد أن مات وأصبح آمنا على نفسه . ذلك أنه وإن قبل فى إخلاص ، كما يبدو للعيان ، عقائد الكنيسة الكاثوليكية كاملة ، كان يقيم بروحه مع الأقدمين : فكان يكتب إلى هوميروس ، وشيشرون ، وليڤى ، كأنهم رفاق له أحياء ، ويتحسر لأنه لم يولد فى أيام البطولة ، أيام الجمهورية الرومانية . وكان من عادته أن يطلق اسم ليليوس Laelius على واحد ممن يراسلهم ، واسم سقراط على واحد آخر . وقد أوحى إلى أصدقائه أن يبحثوا عن المخطوطات الضائعة فى الآداب اللاتينية واليونانية ، وأن ينقلوا النقوش القديمة ، ويجمعوا المسكوكات القديمة ، لأنها وثائق تاريخية قيمة . وحث ولاة الأمور على أن ينشئوا دور الكتب العامة ؛ وكان يجعل نفسه قدوة فيعمل بما يدعو إليه : فكان فى أسفاره يبحث عن النصوص الأدبية القديمة ويبتاعها لأنها « تجارة أعظم قيمة من كل ما يعرضه العرب أو أهل الصين »(٦) ، وينقل بخط يده المخطوطات التى لا يستطيع شراءها ؛ ولما عاد إلى موطنه استأجر النساخين وأسكنهم معه فى داره . وكان يزدهى بنسخة من هوميروس أرسلت إليه من بلاد اليونان ، ورجا مرسلها أن يبعث إليه بنسخة من مؤلفات يورپديز . وكان يصحب معه أينما رحل النسخة التى لديه من أشعار ڤرجيل ، ويسجل على الصفحة الأولى منها الحوادث البارزة فى حياة أصدقائه . ولسنا ننكر أن العصور الوسطى قد حافظت على كثير من الآداب الوثنية القديمة ، وأن بعض الدارسين فى تلك العصور قد أولعوا بهذه الآداب ؛ ولكن پترارك عرف من إشارات عثر عليها فى هذه المؤلفات أن روائع لاحصر لها قد نسيت أو وضعت فى غير المكان اللائق بها ، وجعل همه الكشف عنها .

ويسميه رينان Renan « أول الرجال المحدثين » لأنه « خلق فى العالم الغربى اللاتينى حنيناً رقيقاً إلى الثقافة القديمة »(٧) . على أن هذا الوصف لا يكفى لتحديد معنى « الحداثة » التى لم تكتف بإعادة الكشف عن أدب العالم القديم ، بل أحلت الأدب الطبيعى محل الأدب الخارق للطبيعة ، وجعلته مصدر اهتمام بنى الإنسان . وبهذا المعنى أيضاً يستحق پترارك أن يوصف بالرجل « الحديث » ، فهو وإن كان تقياً معتدلا فى تقواه يُحيره فى بعض الأحيان ما يحدث للإنسان فى الدار الآخرة . فإن ما بعثه من الاهتمام بالعالم القديم كان هو منشأ اهتمام عصر النهضة بحياة الإنسان على هذه الأرض ، وعدم تحريم الملاذ الحسية ، وتمجيد الحياة الدنيوية بدلا من الخلود الشخصى . على أن پترارك لم يكن يخلو قلبه من العطف على وجهة نظر العصور الوسطى ؛ وقد أنطلق فى محاوراته عن **احتقار الدنيا** De Contemptu Mundi القديس أوغسطين بشرح جيد لهذه النظرة . ولكنه وضع نفسه فى هذه الأحاديث الخيالية موضع المدافع عن الثقافة الزمنية والشهرة الدنيوية . وكانت هوة سحيقة تفصل بين مزاجى دانتى وپترارك وإن كان ثانيهما قد بلغ السابعة عشر من عمره حين توفى أولهما . والنقاد مجمعون على أنه أول الكتاب الإنسانيين ، وأول كاتب عبر فى وضوح وقوة عما للإنسان من حق فى الاهتمام بهذه الحياة الدنيا ، وفى الاستمتاع بما تحويه من جمال ، وبذل الجهد فى زيادته ، والعمل على أن يستحق الثناء من الأجيال المقبلة ؛ وقصارى القول أنه كان أبا للنهضة .

الفصل الثانى

ناپلى وبوكاتشيو

وبدأ پترارك فى فوكلوز القصيدة التى كان يرجو بها أن ينافس ڤرچيل ؛ وهى ملحمة سماها أفريقا Africa ، وموضوعها تحرير إيطاليا بفضل انتصار اسكپيو الأفريقى على هنيبال . واختار اللغة اللاتينية واسطة لها كما اختارها الكتاب الإنسانيون بعد قرن من ذلك الوقت ، ولم يختر اللغة الإيطالية كما فعل دانتى ، لأنه كان يريد أن يفهمه كل العالم الغربى الذى يعرف القراءة والكتابة . وكان يزداد ارتياباً فى قيمة قصيدته كلما تقدم فى نظمها ، ولهذا فإنه لم يتمها ، ولم ينشرها . وبينما كان منهمكاً فى شعره السداسى الأوتاد ، كان كتاب أغانيه الإيطالية ينشر شهرته فى طول إيطاليا وعرضها ، وأذاعت ترجمة له شهرته فى فرنسا . ثم وصلته فى عام ١٣٤٠ دعوتان — كانت له هو يد فى توجيههما إليه — إحداهما من مجلس الشيوخ الرومانى والأخرى من جامعة پاريس — تطلبان إليه القدوم إليهما ليتوج فيهما أميراً للشعراء . فقبل دعوة مجلس الشيوخ كما قبل اقتراح ربرت الحكيم Robert the Wise أن يقيم بعض الوقت فى ناپلى وهو فى طريقه إلى روما .

وأعطيت مملكة فردريك الثانى بعد هزيمته هو وآل هوهنشتوفن بقوة جيوش البابوات ودهائهم السياسى ، وكانت تشمل جميع إيطاليا الممتدة جنوب الولايات البابوية — نقول أعطيت هذه المملكة إلى بيت أنجو الذى كان يمثلهم شارل كونت پروڤانس . وحكم شارل تلك البلاد بوصفه ملك ناپلى وصقلية . ثم انتزع بيت أرغونة صقلية من ابنه شارل الثانى . وكسب

ابنه ربرت لقب **الحكيم** لكفايته وحسن تصريفه لشئون الحكم ، ومهارته الدپلوماسية ، ومناصرته للآداب والفنون الراقية ، وإن كان قد أخفق فى الحرب التى شنها لاستعادة صقلية . لقد كانت مملكته فقيرة فى الصناعة ، وكانت الزراعة يسيطر عليها ملاك قصير و النظر يستغلون الزراع كما يستغلهم الملاك الآن استغلالا يكاد يدفعهم إلى الثورة . ولكن تجارة ناپلى كانت تدر على بلاط المالك دخلا جعل القصر الجديد **Castel Nuovo** لاتنقطع منه حفلات المرح والطرب . وحذا أهل اليسار حذو البلاط الملكى ؛ فأصبحت حفلات الزواج سبيلا إلى الخراب ، كما أضحى سباق الزوارق الذى يقام من آن إلى آن مصدر البهجة فى خليج ناپلى ذى الشهرة التاريخية العظيمة . وفى ميدان لمدينة نفسها كان الشباب ذوو الجرأة يثاقفون فى ألعاب البرجاس الخطرة بينما كانت السيدات المتوجات يبتسمن لهم من الشرفات المزدانة بالأعلام . وكانت الحياة فى ناپلى سارة طيبة ، والآداب والأخلاق العامة سهلة طليقة ، والنساء حساناً لا يصعب منالهن . وقد وجد الشعراء فى هذا الجو الملىء بالتبذل والغرام كثيراً من الموضوعات لشعرهم ومن الحوافز الدافعة لقرض الشعر . وكانت هذه البيئة هى التى كونت بوكاتشيو .

وكان بوكاتشيو قد بدأ حياته فى باريس : وكان مولده ثمرة غير مقصودة **لرتفاق هى** بين أبيه — وهو تاجر فلورنسى — وفتاة فرنسية لا يعرف اسمها على وجه التحقيق ، وأخلاقها موضع للريبة[٩] . ولعل مولده غير الشرعى ، وأصله النصف الفرنسى ، قد تعاونا على تكييف أخلاقه وتاريخ حياته . وجىء به وهو طفل إلى تشرتلدو **Certaldo** القريبة من فلورنس حيث قضى طفولة غير سعيدة مع زوجة أبيه ؛ ثم أرسل وهو فى العاشرة من عمره إلى ناپلى (١٣٢٣) ، حيث أعد لحياة المال والتجارة ؛ وفيها سرى فى نفسه كره حياة المال والتجارة ، كما سرى فى نفس بترارك كره القانون ؛ وجهر بأنه يفضل عليها الفقر والشعر . وانهمك فى قراءة

أوفد ؛ وأعجب أشد الإعجاب بـ **التحولات والهيرودات** ، وحفظ عن ظهر قلب الجزء الأكبر من **فتوة الحب** الذى يقول فيه : « إن أعظم الشعراء جميعاً يكشف كيف يمكن أن تلتهب نار ڤينوس المقدسة فى أشد الصدور هرودا »(١٠) . فلما عجز أبوه عن أن يرغمه على حب المال أكثر من الجمال أجاز له أن يترك الأعمال التجارية والمالية على شريطة أن يدرس القانون الكنسى ووافق بوكاتشيو على هذا الشرط ولكن عقله كان قد نضج للكتابة فى الغرام .

وكانت أكثر النساء مرحاً فى ناپلى هى مارية داكوينو **Maria d'Aquino** . وهى ابنة غير شرعية للملك الحكيم(١١) ، ولكن زوج أمها قبل أن تكون ابنته . وتعلمت الفتاة فى دير للنساء ، ثم تزوجت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها بكونت أكوينو ولكنها لم تجد فيه ما ينى بحاجتها ، فشجعت عدداً من العشاق واحداً بعد واحد لكى يسدوا ما تجده من نقص ، وينفقوا مالهم فى ترفها وزينتها . وأبصرها بوكاتشيو أول مرة فى قداس سبت النور (١٣٣١) ، بعد أن مرت أربعة من أعياد الفصح على العيد الذى كشف فيه پترارك لورا فى ظروف مواتية مقدسة شبيهة بهذه الظروف(١٢) . وبدت له أجمل من أفروديتى **Aphrodite** ، فلم يكن فى العالم كله أجمل من شعرها الأشقر ، ولا شىء أكثر إغراء من عينيها الخبيثتين » ؛ وأطلق عليها اسم فيامتا **Fiammetta** — اللهب الصغير — وكان يتوق لأن يحرق نفسه بنارها . ونسى فى هيامه بها القانون الكنسى ، وانمحى من ذاكرته كل ما حفظه فى حياته من الوصايا ، وقضى شهوراً طوالا لايفكر إلا فى الطريقة التى تقربه منها . وكان يذهب إلى الكنيسة منفرداً لعله يراها فيها ، ويذرع الشارع المقابل لنافذتها غادياً رائحاً ، ورحل إلى باي **Baiae** حين ترامى إليه أنها فيها . وظل يتتبع خطاها خمس سنين ؛ وجعلته ينتظر حتى فرغت من المال جيوب غيره ؛ ثم سمحت له أن يتغلب عليها . وقضت معه عاماً كلفه المال الكثير وأضعف من حدة

شهوته ؛ وشرعت هى تشكو من أنه يتطلع إلى غيرها من النساء ؛ هذا إلى أن موارده المالية قد نضب معينها فأخذت الشعلة الصغيرة تبحث عن موارد للمال جديدة ، وانزوى بوكاتشيو فى زوايا الفقر .

وأكبر الظن أنه كان قد قرأ لپترارك **كتاب الأغانى** ولدانتى كتاب **الحياة الجديدة** Vita Nuova ؛ وشاهد ذلك أن قصائده الأولى كانت كقصائدهما أغانى مفعمة بالحنين ، والحرقة ، والهيام الشديد . وكانت كثرتها موجهة إلى فيامتا ، ومنها عدد قليل يصف هياماً أقل من هذا الهيام لوعة . وكتب فيها رواية نثرية مملة تدعى **فيلوكوبا** اقتبسها من إحدى روايات العصور الوسطى الغرامية وهى **الزهرة والزهرة البيضاء** . وكان أجمل منها قصة **فيلوستراتا** التى روى فيها شعر رائع متألق كيف أقسمت كريسيدا Criseda أن تكون وفية لترويلس Troilus طوال حياتها ، وكيف أسرها اليونان ، وكيف أسلمت نفسها بعد قليل من الوقت إلى ديوميد Diomed بحجة أنه « فارع الطول ، قوى ، جميل » وأنه سهل المنال . واختار بوكاتشيو أداة له الموشحات ذات الثمانية الأبيات Ottava Rima التى كانت مثالا احتذاه بلتشى Pulci وبوياردو Boiardo ، وأريستو Ariosto . وهى قصة شهوانية سافرة مؤلفة من ٥٫٤٠٠ بيت من الشعر ، تصل إلى ذروتها حين « تطرح كريسيدا ثيابها وتلقى بنفسها وهى عارية فى أحضان حبيبها »(١٢) . ولكن القصة إلى هذا دراسة نفسانية رائعة لصنف من النساء — خائن فى قلة ، مغرور فى مرح ؛ وتختتم بعبارات أضحت الآن واسعة الانتشار فى التمثيليات الغنائية . « إن الفتاة الشابة طائشة ، تشتهى كثيراً من العشاق ، تقدر جمالها أكثر مما تنبئها به مرآتها ، مختالة فخورة ... لا تعرف كنه الفضيلة ولا الذكاء ، قلقة على الدوام كالريشة فى مهب الريح » .

وكأنما أراد بوكاتشيو أن يقضى على تمنع فيامتا بوطأة الشعر لا غير ، فأهدى إليها بعد قليل من الوقت ملحمة شعرية يبلغ طولها طول الإنياذة تماماً . وتروى هذه الملحمة ما وقع من التنافس الدموى بين أخوين هما پاليمون Palemon وارتشيتى Arcite بسبب حبهما لإميليا Emilia ، ثم موت الذى انتصر منهما فى أحضان حبيبه ، ثم قبولها المهزوم بعد التريث الواجب . غير أن حب الأبطال نفسه بهن بعد نصف أبيات القصة البالغ عددها ٩٨٩٦ ، وفى وسع القارئ الإنجليزى أن يقنع بالموجز المحكم الذى وضعه تشوسر Chaucer لهذه القصيدة **فى قصة الفارس** .

وغادر بوكاتشيو ناپلى إلى فلورنس فى أوائل عام ١٣٤١ . وبعد شهرين من ذلك الوقت قدم پترارك إلى بلاط الملك ربرت ، وتفيأ بعض الوقت ظلال هذا المليك ، ثم سار فى طريقه يبحث عن تاج أمير الشعراء فى رومة .

الفصل الثالث

شاعر البلاط

وكانت رومة عاصمة العالم بلداً خليقاً بالرثاء ؛ فقد غادرتها البابوية إلى أڤنيون منذ عام ١٣٠٩ ، ولم يبق فيها من الموارد الاقتصادية ما يفى حتى بذلك المجد الوسط الذى عرفته تلك المدينة فى القرن الثالث عشر ، ولم تعد تتلقى تلك الثروة التى كانت تنساب من ألف أبرشية وأبرشية موزعة فى نحو اثنتى عشرة دولة . كذلك لم تكن للسفارات الأجنبية قصور فيها ، وقلما كان يظهر فيها وجه كردنال بين خربات الإمبراطورية والكنيسة . ولم يكن ما أصاب الأضرحة المسيحية من دمار ليقل عما أصاب الصروح القديمة المعمدة ؛ وكان الرعاة يسرحون بقطعان الماشية على سفوح التلال السبعة ، والمتسولون يجوبون شوارع المدينة . وقطاع الطرق واللصوص يكمنون فى الطرق العامة ، والزوجات يُختطفن من أزواجهن . والراهبات يُغتصبن ، والحجاج ينهبون ، وكل من فى المدينة يحمل السلاح[١٣] . وكانت أسر الأشراف القديمة — آل كولنا ، وأرسينى ، وساڤلى ، وأنيبا لدى ، وجيتانى ، وفرنجيپا — تتنازع فيما بينها ، وتلجأ إلى العنف تارة وإلى الدسائس والمكائد تارة أخرى ، للظفر بالسيادة السياسية فى مجلس الشيوخ الأرستقراطى الذى كان يحكم رومة . وكانت الطبقات الوسطى قليلة ضعيفة ، وجمهرة الشعب خليطا مهوشاً من عشرات الشعوب يعيشون على حال من الفقر المدقع يشل كل قواهم ولا يبعث فيهم أقل رغبة فى حكم أنفسهم بأنفسهم . وقد تدهورت قبضة البابوية الغائبة على المدينة فلم تعد أكثر من سلطة اسمية نظرية لمندوب بابوى لا يعنى أحد بشأنه .

وبين هذه الفوضى والفاقة كانت الآثار المحطمة لعصر قديم مجيد تغذى رؤى العلماء وأحلام الوطنيين . فكان الرومان يعتقدون أن ستعود رومة فى يوم من الأيام حاضرة العالم الروحية والسياسية ، وأن البرابرة المقيمين وراء الألپ سيرسلون إليها الجزية والزكاة . وكان لايزال فى وسع رجال يتميمون فى مناطق متفرقة من المدينة أن يجدوا لديهم فضلة من المال يناصرون بها الفن : فقد زين پيترو كڤلينى Pietro Cavallini كنيسة القديسة مارية فى تراستيڤيرى Trastevere بالفسيفساء البديعة ، وأنشأ فى كنيسة القديسة تشيتشيليا مدرسة رومانية لرسوم المظلمات تكاد تضارع فى أهميتها مدرسة دتشيو Doccio فى سينيا أو مدرسة چيتو Giotto فى فلورنس . بل إن رومة فى شدة بؤسها وفقرها لم تخل من الشعراء الذين أنساهم ماضيها المجيد حاضرها البئيس . فبعد أن أعادت پادوا Padua وپراتو Prato سنة دومتيان التى كانت تقضى بوضع إكليل على جبهة شاعر محبوب ، رأى مجلس الشيوخ أن مما يتفق مع مكانة رومة التقليدية بوصفها أولى المدائن الإيطالية أن تتوج الرجل الذى أجمعت الآراء على أنه حامل لواء الشعر فى أمته وعصره .

وتنفيذاً لهذا العزم سار موكب بهيج من الشباب والشيوخ فى اليوم الثامن من إبريل عام ١٣٤١ يرافق پترارك وقد ارتدى المئزر الأرجوانى الذى خلعه عليه الملك ربرت حتى وصل إلى سلم الكپتول . وهناك وضع تاج من الغار على رأسه . وقام الشيخ استفانو كولنا الطاعن فى السن بإلقاء خطبة أثنى فيها عليه ثناء جماً . ومن ذلك اليوم كسب پترارك شهرة جديدة وأعداء جدداً ، فأخذ منافسوه ينتفون تاجه بأقلامهم ، ولكن الملوك والبابوات رحبوا به فى بلاطهم ، وسرعان ما وضعه بوكاتشيو فى مضاف « الأقدمين النابهين » ، وأعلنت إيطاليا وهى مزهوة بما يلغه من الصيت أن فرجيل قد ولد مرة أخرى .

ترى أى رجل كان يتراك فى ذلك الوقت الذى بلغ فيه ذروة مجده ؟ لقد كان فى شبابه بهى الطلعة وسيماً ، يختال بجمال منظره وثيابه ؛ وكان حين كبر يسخر من حرصه الشديد على العناية بمظهره وملابسه وعقص شعره ، وضغط قدميه فى حذاءين جميلى المنظر . ولما بلغ سن الكهولة سمن وأطال الشعر على ذقنه ، ولكن وجهه ظل محتفظاً بسحر رقته وحيويته ، وبقى مزهواً بنفسه إلى آخر أيامه . وكان كل ما حدث فى هذه الناحية من تغيير أنه أخذ يزهو بجلائل أعماله بدل الازدهاء بمنظره ؛ لكن هذا عيب لا يسلم منه إلا أعاظم القديسين . ولولا مايظهر فى رسائله من تواضع متكلف وافتخار شريف لتضاعف ما فيها من فتنة وبهاء . وكان كسائر الناس يحب الثناء ، وتتوق نفسه للشهرة ، « وللخلود » الأدبى ، وبذلك كان فى مستهل عصر النهضة الضارب على وترها الحساس وهو التعطش إلى المجد . وكان يغار من منافسيه ، وينزل من عليائه ليرد على ما يصفونه به من عيوب ؛ وقد أثار البعض على ما بلغه دانتى من مكانة (وإن كان قد أنكر ذلك) ؛ وارتاع من شراسة دانتى ، كما ارتاع إرزمس فيما بعد من فجاجة لوثر ؛ ولكنه كان يحس أن فى عناد شاعر فلورنس وجرأته شيئاً أعمق مما يستطيع القلم الهين أن يسير غوره . وكان وهو فى ذلك الوقت نصف فرنسى فى نزعته أكثر تحضراً من أن يسب نصف العالم ، وكانت تنقصه العاطفة المتأججة التى رفعت سمت بإيطاليا ثم أنهكت قواها .

وإذا كان قد وهب بعض المناصب الكهنوتية ، فقد كان له من الرخاء ما يحمله على ازدراء الثروة ، ومن الضعف ما يبعث فيه حب الحياة الأدبية ؛ ويقول فى هذا :

« ليس ثمة عبء أخف على النفس أو أحب إليها من حمل القلم . فأما غير ذلك من المتع فإنا نعجز عن نيله ، أو أنه يجرحنا فى الوقت الذى يسحر فيه لباً ؛ وأما القلم فنمسك به مغتبطين ، ونلقيه راضين ، ذلك أن فيه من

القوة ما لا ينفع ربه وسيده وحده ، بل ينفع كذلك كثيرين غيره ، وإن لم يولدوا إلا بعد موت صاحبه بآلاف السنين . . . وكما أنه لا يوجد بين المناهج الدنيوية ما هو أسمى من الأدب ، فكذلك لا يوجد بينها ما هو أبقى على الزمن ، أو أرق ، أو أكثر وفاء ؛ أو ما يلازم صاحبه فى جميع صروف الحياة نعيمها وشقائها ، دون أن يكلفه إلا القليل من الجهد أو انشغال البال »[١٤] .

لكنه مع هذا يحدثنا عن « أمزجته المتقلبة التى قلما كانت تسعده ، والتى كانت عادة تنزع به إلى القنوط »[١٥] . وكان لا بد له ، إذا أراد أن يكون كاتباً عظيما ، أن يكون مرهف الإحساس بجمال الشكل والصوت ؛ فى الطبيعة ، وفى النساء والرجال على السواء ؛ أى أنه كان عليه أن يعانى أشد مما تعانيه الكثرة الغالبة منا من صخب العالم وما فيه من تشويه . وكان يحب الموسيقى ، ويجيد العزف على العود ، وكان يعجب بالتصوير الجميل ، ويعد سيمون مرتينى Simone Martini من بين أصدقائه . وما من شك فى أن النساء كن يجتذبنه ، وشاهد ذلك أنه يتحدث عنهن فى بعض الأحيان بخوف لا يقل عن خوف النساك الزاهدين ، ويؤكد لنا أنه لم يتصل قط بامرأة اتصالا جسمانياً بعد أن بلغ سن الأربعين ، ويقول فى هذا : « إن قوة الجسم والعقل التى تكفى النشاط الأدبى وتكفى معه الزوجة ، لا بد أن تبلغ درجة كبرى من العظم »[١٦] .

ولم يعرض پترارك على العالم فلسفة جديدة . فقد نبذ الفلسفة الكلامية المدرسية لأن كل ما رآه فيها هو بتر وتقطيع منطقى لا جدوى منه وبعيد كل البعد عن مطالب الحياة . وتحدى القائلين بعصمة أرسطو من الخطأ ، وجرؤ على تفضيل أفلاطون عنه . ورجع عن أكوناس ودانز اسكوتس إلى الكتاب المقدس وكتب آباء الكنيسة ، وأحب تقوى أوغسطين وأقواله المنغمة الجميلة ، كما أحب رواقية أمبروز المسيحية ؛ بيد أنه كان يقتبس من أقوال شيشرون وسنكا بإجلال لا يقل عن إجلاله ما يقتبسه من أقوال

القديسين ؛ ويأخذ حججه عن المسيحية أكثر مما يأخذها من النصوص الوثنية . . وكان يسخر من انقسام الفلاسفة على أنفسهم ويقول إنه « لم يجد بينهم من الاتفاق أكثر مما يجده بين الساعات[١٧] . وكان من أسباب شكواه أن « الفلسفة لا تهدف إلا إلى التقسيم والتفتيت ، وإلى التنقيب عن الاختلافات والفروق ، والتلاعب بالألفاظ »[١٨] . وتلك طريقة يمكن أن تخلق أشخاصاً بارعين فى النقاش والجدل ، ولكنها قلما تخلق عقلاء . . وكان يسخر من درجة « الأستاذ » أو « الدكتور » التى تتوج هذه الدراسات ، وعجب كيف تستطيع الحفلات أن تبدل الأبله الأحمق عالماً نحريراً . ونبذ ، فى ألفاظ تكاد تكون هى بعينها ألفاظ أهل هذه الأيام ، التنجيم والكيمياء الكاذبة القديمة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، والفأل والطيرة ، وزجر الطير ، ومعرفة الغيب عن طريق الأحلام ، وما كان يروى فى أيامه من المعجزات[١٩] وأوتى من الشجاعة ما استطاع به أن يثنى على أبيقور[٢٠] ، فى الوقت الذى كان اسمـــه مرادفاً للكفر بالله . وكان من حين إلى حين يتحدث حديث المتشككين ، ويجهر بهذا التشكك جهر ديكارت به ويقول : « إنى لارتيابى فى مواهبى . . . أتقبل الشك نفسه على أنه حقيقة . . . فلا أؤكد شيئاً ، وأرتاب فى كل شىء إلا حيث يكون الشك تجديفاً »[٢١] .

ويبدو أنه حين استثنى هذا كان مخلصاً فى استثنائه . ذلك أنه لم يكن يجهر بأى شك فى عقيدة ما من عقائد الكنيسة ، فقد كان ظرفه ودماثة خلقه وراحة باله مانعة له من الإلحاد . وقد وضع كثيراً من المؤلفات التى تنطق بتقواه وخشوعه ؛ وهو يسائل نفسه سؤال المتحير : ألم يكن خيراً له أن يشق طريقه سهلا إلى الجنة كما شقها أخوه فى ظل حياة الدير الهادئة . ولم يكن يرى نفعاً فى فلسفة ابن رشد الإلحادية التى كانت قريبة منه فى بولونيا وپدوا ، وكانت المسيحية فى نظره تقدماً لاشك فيه على الوثنية ، وكان يرجو أن يتبين الناس أن فى وسعهم أن يتعلموا دون أن يتخلوا عن مسيحيتهم .

ورأى پترارك أن من الخير له بعد انتخاب البابا الجديد ، كلمنت السادس (١٣٤٢) ، أن يعود إلى أڤينون ليقدم له تحياته ويعرض عليه أمانيه .. وجرى كلمنت على السُّنَّة القديمة سنة منح هبة — هى عبارة عن إيراد بعض أملاك الكنيسة لمن يؤيدونها من الكتاب والفنانين ، فوهب الشاعر رياسة دير بالقرب من پيزا ، ثم عينه فى عام ١٣٤٦ أسقفاً فى پارما ؛ ثم أرسله عام ١٣٤٣ فى بعثة إلى ناپلى حيث التقى بحاكم من أصعب حكام زمانه مراساً وأقواهم شكيمة .

وكان ربرت الحكيم قد مات توآ ، وورثت ابنته چونا Joanna الأولى عرشه وأملاكه ومنها ولاية پروڤانس وأڤنيون تبعاً لذلك . وتزوجت چونا بابن عمها أندرو ابن ملك المجر إرضاء لوالدها ، وظن أندرو أن من حقه أن يكون ملكاً وزوجاً معاً ، فقتله لويس صاحب تارنتو عشيق چونا (١٣٤٥) ، وتزوج الملكة . وخلف أندرو على عرش المجر أخوه لويس فزحف بجيشه على إيطاليا ، واستولى على ناپلى (١٣٤٨) . وفرت چونا إلى أڤنيون ، وباعت المدينة إلى البابوية بثمانين ألف فلورين (نحو مليونى دولار) ؛ وأعان كلمنت أنها بريئة ، ووافق على زواجها ، وأمر الغزاة بالعودة إلى بلاد المجر . ولم يأبه الملك لويس بأمره ، ولكن الموت الأسود (١٣٤٨) فشا فى جيشه ، وأهلك كثيراً من جنوده فاضطر إلى الانسحاب .. واستعادت چونا عرشها (١٣٥٢) ، وظلت تحكم البلاد فى جو من الأبهة والرذيلة حتى خلعها البابا إربان السادس (١٣٨٠) ؛ ثم قبض عليها شارل دوق دورتسو Durazzo فى العام التالى ، وقتلت فى عام ١٣٨٢ .

ولم يتصل پترارك بهذه المهزلة الدموية إلا فى بدايتها أى فى السنة الأولى من حكم چونا ؛ ثم لم يلبث أن عاد إلى نجواله ، وأقام فترة من الوقت فى پارما ، ثم فى بولونيا ، ثم قضى جزءاً من عام ١٣٤٥ فى ڤيرونا . وفى هذه المدينة الأخيرة ، عثر فى مكتبة بإحدى الكنائس على مخطوط يحوى

رسائل شيشرون المفقودة لأتكس ، وبروتس ، وكونتس ؛ وكان قبل ذلك قد كشف فى ليبج Liége عام ١٣٣٣ عن خطبة شيشرون المسماة Pro Archia وهى أنشودة للشعر . وكان هذان الكشفان أجل ما كشفته النهضة من الأدب القديم وأعظمها ثمرة .

وفى مقدورنا أن نعد ڤيرونا فى أيام پترارك من أعظم المدن فى إيطاليا ؛ فقد كانت هذه المدينة تزهو بقدم تاريخها ، وبملهاها الرومانى (حيث لا يزال فى وسع الإنسان أن يستمع فى ليالى الصيف إلى التمثيليات الغنائية فى الهواء الطلق) ؛ وزادت ثروتها بفضل التجارة التى تهبط من جبال الألب وتنقل فى نهر الأديج Adige . وارتقت المدينة رقياً عظيماً فى عهد أسرة اسكالا حتى كادت تنتزع السيادة التجارية من مدينة البندقية ، واختارت حكومة المدينة بعد موت إتسيلينو Ezzelino الرهيب (١٢٦٠) مستينو دلا اسكالا Mostino della Scala حاكماً عليها ، واغتيل مستينو (١٢٧٧) ولكن أخاه ألبرتو Alberto الذى خلفه فى الحكم ثبت دعائم حكم الاسكلچيرى Scaligeri (أى « حملة السلم » وهو رمز ملائم لهذه الأسرة المصَعِّدة) ، وبدأ هذا الحاكم عهد ڤيرونا المجيد . وفى عهده بدأ الرهبان الدمنيك يشيدون الكنيسة الجميلة كنيسة القديسة أناستاسيا Anastasia ؛ وكشف نَسَّاخ غير ذى شأن القصائد المفقودة التى كتبها كاتلس Catullus أشهر أبناء ڤيرونا ، وحاربت أسرة الكاپلتى الجلفيـــة Guelf ، أسرة المنتشى Montechi ، ولم تكن هاتان الأسرتان تحلمان أنهما سوف تصبحان أسرتى الكاپيولت Capulet والمنتجيو Montagues فى رواية شيكسپير ؛ وكان أقوى « الطغاة ، وإن لم يكن أقلهم نبلا ، من أسرة اسكالا هو كان جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala الذى جعل بلاطه ملجأ الجبليين المنفيين ومثابة للشعراء والعلماء ؛ وفيه ظل دانتى عدة سنين يتمتع بالعطف المزعزع المطرد الزيادة . ولكنّ كان جراندى هذا أخضع فيتشندسا Vtcenza ، وپادوا ، وتريڤيزو Treviso ، وبلونو Belluno ،

وفلترى Feltre ، وتشهدالى Cividale لسلطانه . ووجدت مدينة البندقية نفسها يتهددها خطر الإحاطة الخانقة من جميع نواحيها . ولما أن خلف كان جراندى أخوه مستينو Mastino الثانى — وكان أقل منه قوة وحماسة — أعلنت البندقية الحرب على ڤيرونا ، وتحالفت مع فلورنس وميلان ، وارغمت ڤيرونا على أن تتخلى عن جميع ما فتحته من المدن عدا مدينة واحدة ، وشاد كان جراندى الثانى جسر اسكاليچيرو Scalegero الفخم على نهر الأديچ ، وجعل له قنطرة طولها ١٦٠ قدماً ، وكانت فى ذلك الوقت أكبر قنطرة فى العالم ، واغتاله أخوه كنسنيوريو Consignorio ، وحكم بعد هذا الاغتيال حكماً خيراً صالحاً ، وشاد أعظم قبر مزخرف من القبور الذائعة الصيت التى دفنت فيها أسرة اسكالا . واقتسم ابناه العرش وظلا يقتتلان إلى أن ماتا ، فلما كان عام ١٣٨٧ استولت دوقية ميلان على ڤيرونا وڤيتشندسا .

الفصل الرابع

ثورة بيندسو

وعاد پترارك إلى أڤنيون وفوكلوز (١٣٤٥ — ١٣٤٧) ، وكان لا يزال ينعم بصداقة آل كولنا ، فسره أن يعلم أن الثورة قد اشتعل لهيبها فى رومة ، وأن ابن صاحب حانة وغسالة[٢٢] قد انتزع السلطة من آل كولنا وغيرهم من الأشراف ، وأعاد إلى الوجود الجمهورية المجيدة جمهورية آل اسكيپيو ، وجراكس ، وآرنلد البريتشيائى Arnold of Brescia.

وكان نكولا دى ريندسو جبرينى Niccola di Rienzo Gabrini الذى اختصر العامة المقتصدون فى الأسماء اسمه فى ذلك الوقت فجعلوه كولا دى ريندسو Cola di Rinzo ثم اختصره الخلف المهملون فجعلوه ريندسى Rienzi ، كان هذا الرجل قد التقى بپترارك فى عام ١٣٤٣ ؛ وذلك حين قدم إلى أڤنيون ، وهو شاب موثّق ، قبل ذلك الوقت بثلاثين عاماً ليطلع كلمنت السادس على ما آل إليه حال رومة من البؤس ، وليطلب إلى البابوية أن تمد يد المعونة للشعب الرومانى ضد النبلاء المتنازعين النهابين السلابين المسيطرين وقتئذ على العاصمة . وداخلت كلمنت الشكوك فى هذا الرجل ولكنه رده بعد أن نفحه بالفلورينات وشجعه بالأقوال لأنه كان يأمل فى أن يستخدم هذا القانونى المتحمس فى النزاع الكثير الحدوث بين البابوات والأشراف .

وأثارت خرائب رومة وآدابها القديمة خيال ريندسو كما أثارت خيال پترارك ، فارتدى الشملة الرومانية (Toga) البيضاء التى كان يلبسها أعضاء

مجلس الشيوخ القدامى ، وأخذ يتحدث إلى الرومان بحماسة لا تقل عن حماسة ابنى جراكس وبلاغة لا تكاد تقل على بلاغة شيشرون ، ويشير إلى بقايا السوق الرومانية الكبرى ذات الجلال والفخامة ، والحمامات الكبرى ، ويذكر الرومان بالأيام الخوالى حين كان الأباطرة أو القناصل يشرعون القوانين من فوق هذه التلال ويصدرون الأوامر للمدينة وللعالم أجمع ، ويدعوهم إلى الاستيلاء على زمام الحكم ، وإعادة الجمعيات الشعبية ، واختيار تربيون(*) له من القوة ما يستطيع به أن يحميهم من الأشراف الغاصبين . واستمع إليه الفقراء وهم فزعون مرتاعون ، وتساءل التجار هل يستطيع ذلك التربيون المرتقب أن يجعل مكاناً آمناً تقوم فيه الصناعة وتنشط التجارة ، وسخر منه الأشراف ، واتخذوا ريندسو هدفاً لمرحهم وفكاهاتهم على موائد العشاء ، وتوعدهم هو بأن يختار طائفة منهم بشنقهم حين يندلع لهيب الثورة .

وما كان أشد فزعهم حين اندلع لهيبها فعلا . فقد حدث فى ٢٠ مايو من عام ١٣٤٧ أن جاء حشد من الرومان وازدحموا فى الكپتول . وظهر ريندسو أمامهم يحف به أسقف أرڤينو نائباً عن البابا . وأعلن عودة الجمهورية ، وتوزيع الصدقات على المعوزين ، واختير الرجل حاكماً بأمره ، وأجازوا له فى اجتماع آخر عقد فيما بعد أن يتخذ لنفسه اللقب الشعبى القديم — لقب تربيون . واحتج على ذلك استفانوكولنا عضو الشيوخ الهرم ، فأمره كولا أن يخرج هو وغيره من النبلاء من المدينة . واستشاط هؤلاء الأشراف غضباً ولكنهم اضطروا إلى إطاعة الثوار المسلحين ، فانسحبوا إلى ضياعهم فى الريف . وأسكرت ريندسو خمرة النصر فأخذ يتحدث عن نفسه كأنه

(*) ورد هذا اللفظ بصيغة « أطربون » أى القائد أو الحاكم فى أقوال العرب :

فإن يكن أطربون الروم قطعها فإن فيها بحمد الله منتفعا

وكذلك يترجمه البعض « امى الشعب » ولكننا آثرنا بقاء الاسم الأجنبى لأنه أوضح (المترجم)

« المنقذ الأعظم للجمهورية الرومانية المقدســة » الملهم « بقوة . . . يسوع المسيح[٢٣] » .

وكانت إدارته لشئون البلدة أحسن ما تكون الإدارة ، فقد نظم أثمان المواد الغذائية ليمنع المكاسب غير المشروعة ؛ وحفظ ما زاد من الغلال فى أهراء ، وبدئ العمل فى تجفيف المستنقعات الموبوءة ببعوض الملاريا ، ووزعت أرض كمپانيا وأنشئت محاكم جديدة لتوزيع العدالة بإنصاف لا رحمة فيه ولا هوادة ، فكان يحكم على الراهب وعلى البارون بالإعدام إذا ارتكبا نفس الجرم ، وشنق عضو شيوخ قديم لأنه سرق مركبا تجاريا ؛ وقبض على القتلة الذين تستأجرهم الأحزاب المتنازعة ، وأنشئت محكمة للصلح وفقت فى بضعة أشهر بين المتخاصمين فى ١٨٠٠ نزاع . وارتاع الأشراف الذين اعتادوا أن يتصرفوا فى القوانين على هواهم إذ وجدوا أنهم قد ألقيت على عاتقهم تبعة الجرائم التى ترتكب فى ضياعهم ، وفرضت على بعضهم غرامات فادحة ، وسيق بيترو كولنا رغم مهابته وخيلائه إلى السجن حافى القدمين . وعرض القضاة المتهمون بالعبث بالعدالة مصلوبين فى الميادين العامة ، وفلح الزراع حقولهم فى أمن وسلام لم يعهدوا لهما مثيلا من قبل ، وكان التجار والحجاج القادمون إلى رومة يُقَبِّلون شعار الجمهورية التى بعثت من جديد والتى أمنت الطرق العامة بعد أن ظلت نصف قرن من الزمان مباعة لقطاع الطريق[٢٤] . وادهشت إيطاليا على بكرة أبيها مما حدث رومة من تغير وتحول ، ورفع بترارك إلى رينزو قصيدة تفيض بالثناء والاعتراف بالجميل .

واغتنم التريبون هذه الفرصة وأفاد منها كما يفيد السياسى المحنك الجرىء ، فأرسل الوفود إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة ، ودعا المدن أن ترسل ممثليها ليتألف منهم برلمان عظيم يضم أشتات « إيطاليا المقدسة » ويحكمها على نظام البلديات المستقلة المتحدة ، وتكون رومة عاصمة العالم كما كانت من

قبل . وتمهيداً لهذه الغاية جمع مجلسا من القضاة دعاهم من كافة أنحاء إيطاليا ، وعرض عليهم السؤال الآتى : هل من حق الجمهورية الرومانية ، وقد بعثت إلى الوجود ، أن تستعيد جميع الامتيازات والسلطات التى عهدت بها فى أثناء ضعفها وانحلالها إلى غيرها من السلطات ؟ ولما أجاب المجلس عن هذا السؤال بأن ذلك من حقها ، عرض ريندسو على الجمعية الشعبية قانونا يعيد إلى الجمهورية كل هذه المنح والسلطات . ومحا هذا الإعلان الشامل مئات من الهبات ، وحوادث النزول من العرش ، والتتويج ، وهدد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والمدن المستقلة ، وسلطة الكنيسة الزمنية جميعها . وبعثت خمس وعشرون من حكومات المدن المستقلة بممثليها إلى برلمان ريندسو ، ولكن المدن الكبرى ــ البندقية ، وفلورنس ، وميلان ــ ترددت فى النزول عن سيادتها العليا إلى دولة اتحادية . وسر كلمنت السادس من تقوى ريندسو ، ومن إشراك أسقف أرڤينو معه فى السلطة رسميا ، ومما أفاءه على الحجاج من حماية ، ومن مشروعه الذى يرمى إلى إقامة عيد عام فى سنة ١٣٥٠ ينتظر أن يدر على البلدة مالا جما ، ولكنه شرع يسائل نفسه : أليس هذا الجمهورى العظيم الآمال رجلا حالما مثاليا مندفعا اندفاعا سوف يؤدى به إلى الدمار ؟

ثم تحطم هذا الحلم النبيل ، وكان تحطمه مثاراً للعجب والأسى معاً . ذلك أن السلطة ، كالحرية ، امتحان لا يجتازه بنجاح إلا من اتصف بالذكاء والرزانة والهدوء . أما ريندسو فقد بلغت قوته الخطابية مبلغاً يمنعه أن يكون من رجال الحكم الواقعيين . وأصبح يؤمن بعباراته الخلابة ، ووعوده ، ومطالبه ، وسمت عقلَه أقوالُه المنمقة . ولما اجتمعت الجمعية الاتحادية (فى شهر أغسطس من عام ١٣٤٧) ، انفق على أن تبدأ أعمالها بمنحه لقب فارس . واتخذ طريقه فى مساء ذلك اليوم يحف به حرسه إلى مكان التعميد فى كنيسة القديس چون لاتران ، وألقى بنفسه فى الحوض العظيم ، الذى تطهر فيه قسطنطين من وثنيته وذنوبه ، كما تقول القصة ، ثم ارتدى ثياباً

بيضاء ، وقضى الليل نائماً على أريكة عامة وضعت بين أعمدة الكنيسة . فلما أصبح الصباح أصدر إلى الجمعية وإلى العالم أجمع مرسوماً يعلن فيه حرية جميع المدن الإيطالية ، ويمنح أهلها جميعاً حق المواطنية الرومانية ، ويحتفظ لسكان رومة وإيطاليا دون سواهم بحق اختيار الإمبراطور . ثم استل سيفه ولوح به فى ثلاث جهات وقال بوصفه ممثل رومة : « ذلك ملكى ، وذاك لى ، وذاك » . واندفع من ذلك الحين فى الإسراف والمباهاة ، فكان يمتطى صهوة جواد أبيض ، ويخفق من فوق رأسه علم ملكى ، ويتقدمه ألف حارس مسلح ، ويرتدى ثوباً من الحرير الأبيض ذا أهداب من الذهب(٢٥) . ولما عاب عليه استفانو كولنا أهدابه الذهبية أعلن أن الأشراف يأتمرون به (وأكبر الظن أن هذا صحيح) ، وأمر بالقبض على عدد منهم . وأمر بهم فسيقوا مكبلين بالأغلال إلى الكپتول ، وعرض على الجمعية أن يعدموا ، ثم ندم على ذلك العرض ، وعفا عنهم ، وانتهى الأمر بأن عينهم فى بعض مناصب الدولة فى كمپانيا . وكان جزاؤه منهم أن حشدوا قوة من مرتزقة الجند معادية للجمهورية ؛ وخرج حرس المدينة الوطنى لملاقاتهم ، وهزمهم ، وقتل فى المعركة استفانو كولنا وولده (٢٠ نوفمبر سنة ١٣٤٧) .

وسكر رينسو بخمرة النصر فأخذ يغفل شيئاً فشيئاً شأن ممثلى البابا الذى أشركه معه من قبل فى منصبه وسلطانه . وأخذ كرادلة إيطاليا وفرنسا ينذرون كلمنت بأن إيطاليا الموحدة ستجعل الكنيسة أسيرة للدولة — وأن هذا الأسر يصبح أشد وأكثر توكيداً إذا قامت إمبراطورية تحكمها رومة . وعملا بهذا التحذير كلف كلمنت مندوبه فى رومة برتران ده دو Bertrand de Deux أن يعرض على رينسو واحدة من اثنتين : خلعه من منصبه أو تقييد سلطانه بحيث يقتصر على الشئون الدنيوية الخاصة بمدينة رومة . وخضع كولا بعد أن قاوم بعض المقاومة ، ووعد بإطاعة البابا ، واسترد المراسيم التى ألغى بها الامتيازات الإمبراطورية والبابوية . ولكن هذا الخضوع

لم يرض كلمنت فاعتزم أن يخلع التربيون المعاند ، وأصدر فى الثالث من ديسمبر مرسوماً بابوياً يصم فيه كولا بالإجرام والإلحاد ، ويهيب بالرومان أن يطردوه من البلاد . وأشار المندوب إلى أنهم إن لم يفعلوا هذا لن يقام عيد . وكان الأعيان فى هذه الأثناء قد حشدوا جيشاً آخر ، زحف على رومة . وأمر ريندسو أن تدق الأجراس تدعو الشعب إلى حمل السلاح ، لكن هذه الدعوة لم يستجب لها إلا عدد قليل ، لأن كثيرين قد أغضبهم فدح الضرائب التى فرضها عليهم ؛ ومنهم من فضل ما ينالونه من المكاسب فى العيد عما تلقيه عليهم الحرية من تبعات . ولما اقتربت قوى الأشراف من الكبتول خارت قوى ريندسو ، وخلع شارة منصبة ، وودع أصدقاءه ، وأجهش بالبكاء ، وحبس نفسه فى كاستلو سانتا أنجليو Castello Sant' Angelo (١٥ ديسمبر سنة ١٣٤٧) ، وعاد الأشراف الظافرون فدخلوا قصورهم فى المدينة واختار المندوب البابوى اثنين منهم ليحكما رومة .

وفر ريندسو إلى نابلى ، وكان لا يزال مغضوباً عليه من الكنيسة وإن لم يصب بأذى من جانب الأعيان ؛ ثم فر من نابلى إلى غابات الجبال فى أبردسى Abruzzi القريبة من سلمونا Sulmona ، وهناك لبث أثواب التائبين ، وقضى عامين يعيش عيشة الزهاد المنقطعين للدين . وبعد أن مرت به عشرات المئات من المشاق والمحن اتخذ سبيله سراً متنكراً إلى براج مجتازاً إيطاليا وجبال الألب والنمسا ، ومثل فى تلك المدينة فى حضرة الإمبراطور شارل الرابع ، وأخذ وهو غاضب يندد بالبابوات ، ويقول إن ما تعانيه المدينة من فقر وما يسودها من فوضى إنما يرجعان إلى كثرة غيابهم عنها ، وإن سلطتهم الزمنية وسياستهم هما علة انقسام إيطاليا . وعنفه شارل على أقواله ودافع عن البابوات ؛ ولكنه أبى أن يجيب البابا كلمنت إلى ما طلبه من إرسال كولا ليزج فى سجن أفنيون ، وأبقاه معتقلا تحت الحراسة فى إحدى القلاع القائمة على نهر الإلب . وقضى كولا فى العزلة

وعدم النشاط عاماً كاملا لم يطق بعده صبراً عليهما فطلب أن يرسل إلى بلاط البابا . وهرع الناس إلى رؤيته وهو فى طريقه إلى أڤنيون ، وعرض عليه بعض الفرسان الأنجاد أن يحموه بسيوفهم . وبلغ أڤنيون فى اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة ١٣٥٢ منهوك القوى ممزق الثياب إلى حد استثار عطف كل من رآه . ثم سأل عن پترارك وكان وقتئذ فى ڤوكوزب ورد الشاعر بأن أهاب بأهل رومة أن يحموا الرجل الذى أراد أن يهبهم الحرية . ومما جاء فى هذه الدعوة :

إلى أهل رومة ... البواسل الأنجاد ... الذين سادوا الأمم !

إن زعيمكم السابق أسير الآن فى أيدى الأجانب ؛ وكأنه — ويالله هول حقاً ! — لص من لصوص الليل أو خائن لبلاده ، يعرض قضيته وهو مصفد فى الأغلال ، تأبى أعلى محكمة أرضية أن تمكنه من الدفاع المشروع عن نفسه .... إن رومة بلا ريب لا تستأهل هذه المعاملة . لقد كان أهلها من قبل غير خاضعين لقانون أجنبى ... أما الآن فيساء إليهم بلا تمييز بينهم : ويلقون هذه المعاملة وهم برآء من إثم الجريمة بل وهم جديرون بالثناء العظيم الذى يستحقه أهل الفضيلة ... وليست التهمة الموجهة إليه هى خيانة الحرية ، بل هى الدفاع عنها ، وليس ذنبه أنه سلم الكبتول بل ذنبه أنه حماه . وإن أعظم التهم الموجهة إليه ، والتى يجب أن يكفر عنها فوق المشنقة هى أنه قد جرؤ على التوكيد بأن الإمبراطورية الرومانية لا تزال قائمة فى رومة ، وأنها لا تزال مسيطرة على الشعب الرومانى . ألا تباً لهذا الزمان ! وتبا لتلك الغيرة الشنيعة ، وذلك الحقد المنقطع النظير ! أين أنت أيها المسيح ! يا أعدل القضاة ويا أحكم الحاكمين ؟ أين عيناك اللتان تعودت أن تبدد بهما سحب شقاء البشرية ؟ ... لم لا تقضى ببرقك وصواعقك على هذه المحاكمة الدنسة ؟(٣٦) .

ولم يطالب كلمنت بإعدام كولا ، بل أمر بأن يوضع تحت الحراسة

فى برج القصر البابوى بأڤنيون . وبينما كان ريندسو يدرس الكتاب المقدس وكتاب ليڤى فى سجنه ، استولى تربيون آخر يدعى فرانتشسكو برنتشلى Francesco Baroncelli على زمام السلطة فى رومة ، ونفى أعيان المدينة ، وأهان المندوب البابوى ، وتحالف هو والجبليون مؤيدو الأباطرة ضد البابوات ، وأطلق إنوسنت السادس ، الذى خلف كلمنت فى الكرسى البابوى ، كولا من سجنه ، وأرسله إلى إيطاليا مساعداً للكردنال ألبرنودس Albornoz الذى عهد إليه إعادة سلطة البابوية فى رومة . وبينما كان الكردنال الماكر ، والطاغية المستضعف يقتربان من العاصمة دبرت فتنة فى المدينة ، خلع على أثرها برنتشلى وقتل ، وأسلم الرومان المدينة لألبرنودس . ورحب العامة بريندسو ، وأقاموا له أقواس النصر ، وهتفوا باسمه وقد احتشدوا فى الشوارع إظهاراً لفرحهم . وعينه ألبرنودس عضواً فى مجلس الشيوخ ، وعهد إليه الأعمال غير الدينية فى حكومة رومة (١٣٥٣) .

ولكن السنين التى قضاها فى السجن قد سببت ترهل جسمه ؛ وحطمت شجاعته ، وفلت من حدة عقله ، وقد كان من قبل قوياً ساطعاً غير هياب ولا وجل . فكانت سياسته متمشية من أغراض البابا ، بتهيب المغامرات العظيمة التى كان يندفع إليها فى حكمه وهو شاب . وكان الأعيان لا يزالون يحقدون عليه ، وصعاليك المدينة يرون فيه الآن رجلا حذراً متحفظاً متجرداً من المثل العليا ، فانقلبوا عليه وعدوه خائناً لقضيتهم . ولما أعلن آل كولنا الحرب عليه وحاصروه فى پلسترينا ، أوشك جنوده الذين لم يتناولوا مرتباتهم أن يتمردوا عليه ، فاقترض المال ليؤدى منه مرتباتهم ، وفرض الضرائب ليفى بدينه ، وأغضب بذلك الطبقة الوسطى . ثم زحفت جموع الغوغاء الثائرة على الكبتول ، ولم يكد ينقضى شهران على عودته إلى الحكم ، وأخذت تنادى « ليحيى الشعب ! الموت للخائن كولا دى ريندسو ! » . فخرج إليهم من قصره فى دروع الفرسان وحاول أن يسيطر على الجماهير

بفصاحته وزلاقة لسانه ، ولكن الثائرين علا صياحهم على صوته ، وألقوا عليه وابلا من القذائف ، فأصاب سهم منها رأسه وانسحب على أثر ذلك إلى القصر . وحينئذ أشعل الغوغاء النار فى الأبواب واقتحموها ، ونهبوا الحجرات . واختفى ريندسو فى إحداها ، وأسرع فحلق لحيته ، وارتدى ثياب حمال ، وكوم بعض قطع من الفرش على رأسه ، وخرج من القصر ، ومر ببعض الغوغاء دون أن يكشفوا أمره . ولكن بنواره الذهبى نم عليه ، وسيق أسيراً إلى سلم الكپتول ، حيث كان هو من قبل قد حكم على الناس بالإعدام . وطلب إلى الشعب أن يستمع له ، وحاول أن يستميل قلوب العامة بخطبته ، ولكن أحد الصناع خشى أن يتأثر هؤلاء بفصاحته ، فقطع عليه كلامه بضربة سيف فى بطنه . وتبعه مائة من أشباه الأبطال فأنفذوا خناجرهم فى جسده الميت . ثم سحبت جثته والدم يسيل منها فى شوارع المدينة وعلقت فى حانوت قصاب كما تعلق جيف البهائم . وبقيت على هذه الحال يومين تعرضت فى خلالهما لإهانات الشعب وحجارة الغلمان(٢٧) .

الفصل الخامس

العـــالم الجوال

أخفق ريندسو فى إعادة رومة القديمة التى مات فيها كل شىء إلا الشعر ، وقد أفلح پترارك فى إعادة الآداب الرومانية التى لم تكن قد ماتت ، وكان قد أيد ثورة كولا تأييداً بلغ من القوة حداً خسر معه عطف آل كولنا فى أڤنيون . وفكر وقتاً ما فى الانضمام إلى ريندسو فى رومة ، واتخذ طريقه فعلا إليها حتى وصل إلى چنوى ، وفيها سمع أن مقام التربيون ومسلكه آخذان فى الانحطاط ، فما كان منه إلا أن غير طريقه واتجه نحو پارما (١٣٤٧) . وكان فى إيطاليا حين فشا فيها الوباء الأسود ، وأودى بحياة كثيرين من أصدقائه ، وقضى على لورا فى أڤنيون . وقبل فى عام ١٣٤٨ دعوة ياقوبو Jacopo الثانى صاحب كرارا لأن ينزل ضيفاً عليه فى پدوا .

وكانت المدينة ذات جو عتيق ثقيل ممل . فقد كان عمرها مائة عام حين ولد فيها ليڤى عام ٥٩ ق . م ، وأصبحت تحكم نفسها بنفسها فى عام ١١٧٤ ورزحت تحت طغيان أنسيلينو Ezzelino (١٢٣٧ — ١٢٥٦) ، ثم استردت استقلالها ، وغنت أناشيد الحرية ، وأخضعت ڤيتشنسا لسلطانها . ثم هاجمها كان جراندى دلا اسكالا صاحب ڤيرونا ، وكاد يغلبها على أمرها ، فتخلت عن حريتها واختارت ياقوبو الأول صاحب كرارا حاكماً بأمره عليها (١٣١٨) ، وكان رجلا قُدّ قلبه من الرخام المسمى باسمه . وتولى سلطته من بعده بعض أعضاء أسرته إما بطريق الميراث أو بالاغتيال . واستولى مضيف پترارك على مقاليد الحكم فى عام ١٣٤٥ بعد أن اغتال سلفه . وحاول أن يكفر عن ذنبه بالحكم الصالح ، ولكنه اغتيل بعد أن

حكم أربع سنين وخلفه فرانتشسكو الأول صاحب كرارا (١٣٥٠–١٣٨٩) ، وحكم البلدة حكماً عجيباً دام نحو أربعين عاماً ، رفع فى خلالها مقام بدوا إلى مصاف المدن الكبرى أمثال ميلان ، وفلورنس ، والبندقية ، وإن كان هذا لم يدم إلا وقتاً قصيراً . وقد أخطأ فانضم إلى جنوى ضد البندقية فى الحرب العوان التى اتقدت نارها سنة ١٣٧٨ ، والتى انتصرت فيها مدينة البندقية وأخضعت بدوا لسلطانها (١٤٠٤) .

وقدمت المدينة فى هذه الأثناء أكثر من نصيبها لحياة إيطاليا الثقافية ، فأتمت فى عام ١٣٠٧ كنيسة القديس أنطونى المعروفة بذلك الاسم الحبيب إلسانتو El Santo ؛ ورمم فى عام ١٣٠٦ البهو الأعظم المعروف باسم سالا دلا رجيونى Sala della Ragione (بهو البرلمان) على يد المهندس المعمارى الراهب چيوڤنى إريمتانو Giovanni Eremitano ،ولا يزال هذا البهو قائماً إلى الآن ؛ وكان القصر الملكى (الرجيو Reggio فى ١٣٤٥ وما بعدها) يحتوى على أربعمائة حجرة فى كثير منها مظلمات يفخر بها آل كرارا ؛ ولم يبق من هذه المظلمات إلا برج دقت ساعته الشهيرة أولى دقاتها فى عام ١٣٦٤ . وابتاع تاجر طموح يدعى أنريكو اسكراڤني Enrico Scravegni فى بداية ذلك القرن قصراً فى المدرج الرومانى القديم يسمى « الحلبة » Arena ، واستدعى أشهر مثـــال فى إيطاليا وهو چيوڤنى پيزانو Giovanni Pisano ، وأشهر مصوريها وهو چيتو Giotto ، لينقشا له معبد بيته الجديد (١٣٠٣ — ١٣٠٥) . وكانت نتيجة جهودهما « معبد الحلبة » الصغير الذائع الصيت فى أنحاء العالم المتعلم كله . وفيه صوّر چيتو الظريف نحو خمسين صورة جدارية ، ونحتاً مستديراً ومدلاة تروى كلها القصة العجيبة قصة العذراء وابنها ، وأحاط المظلمات الرئيسية برءوس الأنبياء والقديسين ، وبأشكال نسوية ترمز إلى فضائل الجنس البشرى ورذائله . وصور تلاميذه على الباب الداخلى بجد فاتر صورة ليوم الحساب ذات أشكال غريبة مختلطة مهوشة كأنها الميازيب ؛ ونقش منتاجينا Montagena بعد

١٥٠ سنة من ذلك الوقت ضريح كنيسة الإرمتانى القريبة من هذا البيت . ولعله وهو يقوم بعمله قد سخر من التصميم الساذج ، وفن المنظور البدائى ، ومن تشابه الوجوه ، والمواقف ، والأشكال تشابهاً يبعث على الملل والسآمة ، ومن نقص فى العلم بالتشريح ، ومن الشقرة الثقيلة البادية فى الكثرة الغالبة من الأشكال ، كأنما اللمبارد أهل بدوا لا يزالون هم بعينهم اللنجيوبارد Longobards القادمين توآً من ألمانيا الموفورة الطعام . ولكن ملامح العذراء الجميلة فى صورة مولد المسيح ، ورأس المسيح الفخم النبيل فى صورة العازر ، والكاهن الأكبر البادى الجلال فى صورة الخطاب . والمسيح الهادئ ، وبهوذا الأسخريوطى فى صورة الخيانة ، واللطف الصافى ، والتأليف المتناسق ، والنمو المتدرج الذى يشاهد فى المنظر الفسيح من حيث اللون والشكل ، كل هذا يكسب المنظر جدة ورونقاً وصفاء لا زال يحتفظ بها بعد ستة قرون ، وتجعله أول نصر للتصوير فى القرن الرابع عشر .

ولعل پترارك قد وقعت عيناه على مظلمات الحلبة ، وما من شك فى أنه كان يقدر چيتو أعظم التقدير . وشاهد ذلك أنه أوصى إلى فرانتشسكو داكرارا بصورة للعذراء بريشة « المصور الممتاز ، چيتو ، وهى صورة يدهش جمالها . . . سادة الفن »(٢٨) . . لكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه مولعاً بالأدب أكثر من ولعه بالفن . وما من شك فى أنه قد نبهه وشحذ همته ما سمعه من أن ألبرتينو مساتو Albertino Mussato ، وهو رجل من ذوى المشاعر الإنسانية سابقاً على پترارك نفسه قد توج شاعراً للبلاط فى پدوا عام ١٣١٤ لأنه كتب مسرحية باللغة اللاتينية تسمى إتشرينس Ecerinis نحا فيها نحو أسلوب سنكا . ومبلغ علمنا أن هذه كانت أول مسرحية كتبت فى عصر النهضة . وما من شك فى أن پترارك قد زار الجامعة التى كانت مفخرة المدينة والتى كانت فى ذلك الوقت أشهر مدارس إيطاليا بأجمعها ، وكانت تنافس جامعة بولونيا بوصفها مركزاً للتدريب على القانون ، كما كانت تنافس جامعة پاريس بوصف كونها مركزاً

للفلسفة . ودهش پترارك حين شاهد فلسفة ابن رشد يعتنقها فى غير خفاء بعض أساتذة پدوا الذين كانوا يرتابون فى خلود نفوس الأفراد ، والذين كانوا يتحدثون عن المسيحية كأنها خرافة مفيدة ينبذها المتعلمون فى الخفاء :

وفى عام ١٣٤٨ نجد شاعرنا القلق فى مانتوا ، ثم نجده بعدئذ فى فيرارا ، ثم انضم فى عام ١٣٥٠ إلى سيل الحجاج المتجهين إلى رومة للاشتراك فى عيدها ؛ وعرج وهو فى الطريق على فلورنس فزارها للمرة الأولى وعقد أواصر الصداقة القوية بينه وبين بوكاتشيو . وقد وصف پترارك هذه الصداقة بقوله إنهما من ذلك الحين « كان لهما قلب واحد »(٢٩) ، وحدث فى عام ١٣٥١ أن ألغى سيد فلورنس المرسوم القاضى بمصادرة أملاك پترارك ، ثم أرسل بوكاتشيو إلى پدوا ليعرض على پترارك تعويضاً مالياً وكرسى الأستاذية فى جامعة فلورنس ، فلما رفض پترارك هذا العرض رجعت فلورنس عن إلغاء المرسوم .

الفصل السادس

چيتو

إن من العسير أن نحب فلورنس كما كانت فى العصور الوسطى(*) . ذلك أنها كانت وقتئذ نكدة صارمة فى الصناعة والسياسة ؛ ولكننا لا يصعب علينا مع ذلك أن نعجب بها . لكنها خصصت ثروتها لخلق الجمال . ففيها أيام شباب پترارك كانت النهضة فى أوج مجدها .

فقد علا شأنها فيما كان يكتنفها من جو حافز ملىء بالتنافس المالى والتجارى ، والنزاع العائلى ، والعنف الفردى ، لم يكن لشىء منها مثيل فى سائر أنحاء أوربا . لقد كان أهل المدينة منقسمين على أنفسهم تفرق بينهم حرب الطوائف ، وكانت كل طائفة فيها منقسمة هى الأخرى إلى أحزاب لا ترحم إذا كتب لها النصر ، ولا تسكت عن الانتقام إذا منيت بالهزيمة ، وكان انتقال بعض الأسر من حزب إلى حزب فى أى وقت من الأوقات يخل بتوازن القوى بينها ، وكثيراً ما كان يحدث فى أية لحظة أن تنتضى السلاح بعض العناصر المتذمرة ، وتحاول إسقاط الحكومة ؛ فإذا أفلحت نفت زعماء الحزب المغلوب من المدينة ، وصادرت فى العادة أملاكهم ، وحرقت بيوتهم أحياناً . على أن هذا النزاع الاقتصادى وذاك الاضطراب السياسى لم يكونا كل ما فى فلورنس من حياة ، ذلك أن أهلها كانوا ذوى شعور وطنى قوى يعتزون به وإن كانوا أكثر إخلاصاً لحزبهم منهم لمدينتهم ، وكانوا ينفقون كثيراً من مالهم فى سبيل المصلحة العامة . وكان الموثرون من الأفراد ينفقون من أموالهم على رصف الشوارع وإنشاء

(*) يستعمل لفظ العصور الوسطى فى هذه المجلدات للدلالة على تاريخ أوربا وحضارتها بين عامى ٣٢٥ و١٤٩٢ بعد الميلاد — أى بين قسطنطين وكولمبس .

(شكل ٢) الهرب إلى مصر

تصوير چيتو ؛ منقولة عن معبد الحلّبة فى پدوا

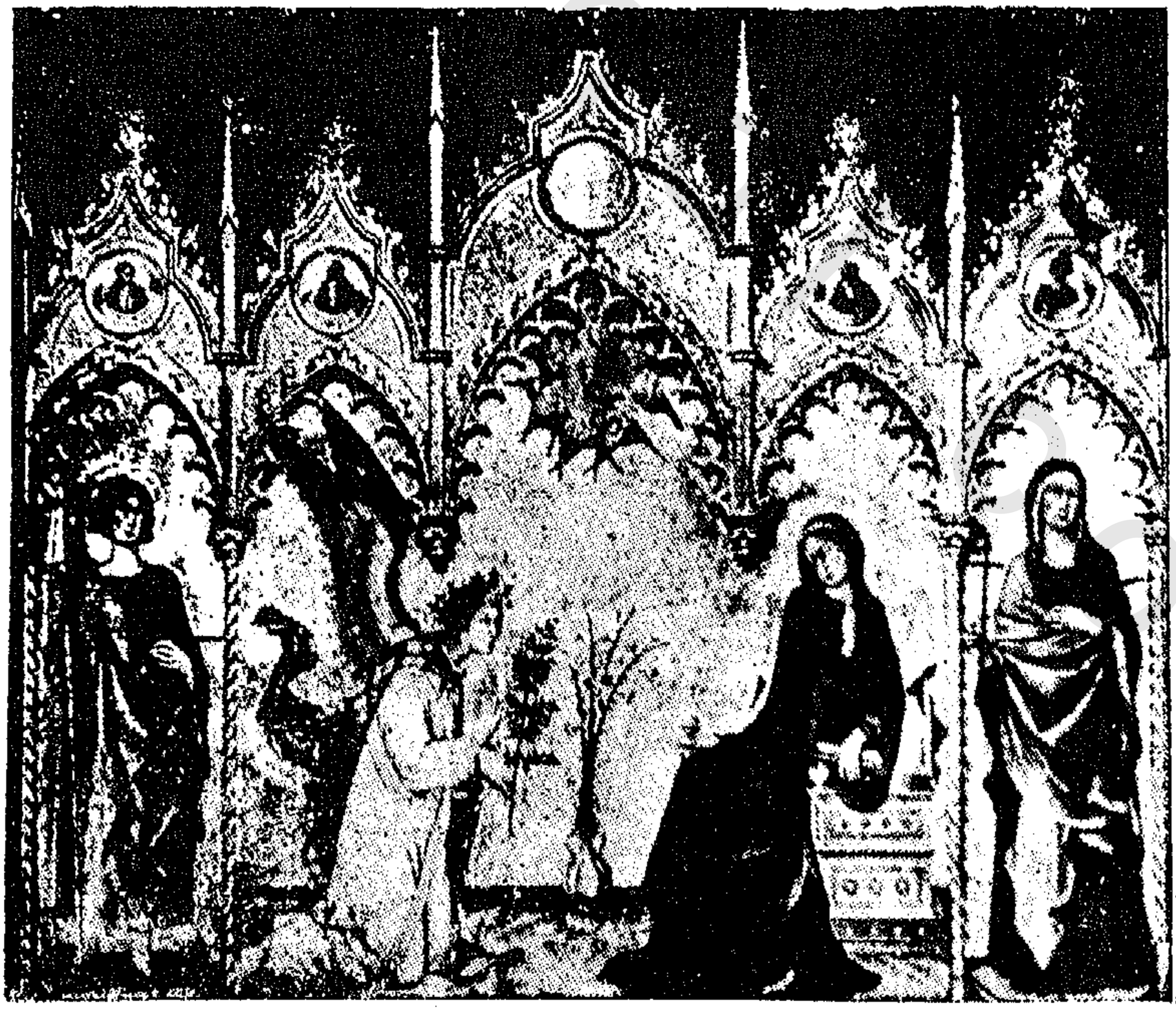

(شكل ٣) البشارة

من تصوير سيمونى مرتينى — منقولة عن معرض افيرى بمدينة فلورنس

(انظر ص ٦٣)

Obeikandl.com

المجارى ، وتحسين موارد ماء الشرب ، وإعداد مكان صالح للسوق العامة ، وتشييد الكنائس ، والمستشفيات ، والمدارس ، أو إصلاحها . وكذلك كانت تفعل نقابات الحرف . وكان الأهلون ذوى شعور بالجمال لا يقل فى قوته عن شعور اليونان الأقدمين أو الفرنسيين المحدثين ، وكان هذا الشعور يدفعهم لرصد الأموال العامة والخاصة لتزيين المدينة بالعمائر ، والتماثيل ، والصور ، وتجميل بيوتهم من الداخل بهذا كله وبعشرات من الفنون الصغرى .

وكان الخزف الفلورنسى أرقى أنواع الخزف الأوربى فى ذلك العهد ؛ كذلك كان الصياغ يحلون الأعناق والصدور ، والأيدى ، والمعاصم ، والمناطق ، ومذابح القرابين ، والنضد ، والأسلحة ، والنقود ، بالجواهر أو الخشب الملبس ، والنقوش المحفورة أو البارزة التى لا يفوقها شىء من نوعها فى عصر آخر من العصور .

وأخذ الفنان فى ذلك الوقت تنعكس عليه النزعة الجديدة نزعة اهتمام الفرد بكفايته الذاتية أو حبه للفن الجميل ، فبرز من الطائفة أو الجماعة ، ورسم ما ينتجه باسمه . وكان نقولو پيزانو Niccolo Pisano قد خلص قبلئذ فن النحت من تقليد الموضوعات الدينية ، وخضوعه لأساليب العمارة وذلك بجمعه بين النزعة الطبيعية القوية ومثل الإغريق العليا فى تصوير الجسم . وصب تلميذه أندريا پيزانو Andrea Pisano نصفى بابين من البرنز لمبنى التعميد فى فلورنس (١٣٠٠ — ١٣٠٦) صور عليهما فى اثنين وعشرين نقشا بارزاً تقدم الفنون والعلوم منذ حفر آدم وغزلت حواء ، وليس هذان الأثران الفنيان الباقيان من القرن الرابع عشر بأقل قيمة من « أبواب الجنة » التى نقشها جبرتى Ghiberti فى القرن الخامس عشر على هذا البناء نفسه . وفى عام ١٣٣٤ وافق أمير فلورنس على تخطيط جيتو لبرج بتحمل ثقل أجراس الكنيسة وينشر أصواتها ، وصدر بذلك

مرسوم تتمثل فيه روح العصر جاء فيه أن « برج الأجراس يجب أن يشاد بحيث يسمو فى فخامته ، وارتفاعه ، ودقة صنعه ، على كل شىء من نوعه أبدعه فى الزمن القديم اليونان والرومان فى أوج مجدهم(٣٠) » . وليس جمال البرج فى شكله المربع الذى لا يمتاز بشىء عن أمثاله (والذى كان چيتو يرغب فى أن تعلوه منارة مستدقة) ، بل فى نوافذه المزخرفة على الطراز القوطى ، وفى النقوش البارزة التى حفرها چيتو ، وأندريا بيزانو ، ولوكا دلا رببيا Luca della Robia فى الرخام الملون على الألواح السفلى . وواصل العمل ، بعد موت چيتو ، بيزانو ، ودوناتلو ، وفرنتشسكو تالنتى ، وإليهما يدين البرج بما حوته أعلى مقنطراته من جمال بالغ الأوج .

وكان چيتو دى بندونى Giolto di B°ndoni يحمل لواء المصورين فى القرن الرابع عشر كما كان بترارك يحمل لواء الشعراء فى ذلك القرن نفسه ، وكان الفنان يضارع الشاعر فى تعدد كفاياته ، فقد كان مصوراً ، ومثالا ، ومهندسا معماريا ، ورأسمالياً ، وخبيراً بأحوال العالم ، لا يقل حذقه للآراء الفنية ، عن مهارته فى الحيل العملية والأجوبة الفكهة المسكتة ، ولهذا كان چيتو يسير فى الحياة واثقا من نفسه ، ينثر روائع فنه فى فلورنس ، ورومة ، وأسيسى ، وفرارا ، ورافنا ، وريمينى ، وفايندسا Faenza ، وبيزا ، ولوكا Lucca ، وأرتسو ، وپدوا ، وڤيرونا ، ونابلى ، وأربينو Orbino ، وميلان . ويبدو أنه لم يكن يهتم مطلقا بأن يكلف بالقيام بعمل من الأعمال ، ولما سافر إلى نابلى سافر إليها ضيفا على الملك فى قصره . وهناك تزوج وكان له أبناء قبيحو المنظر ، ولكن أعماله الفنية الجميلة الهادئة ، وحياته التى تسرى فيها روح البهجة ، لم تتأثرا قط بهذا القبح ، وكان يؤجر الأنوال للصناع بضعفى أجرها المعتاد(٣١) ، ومع هذا فإنه يقص لنا قصة القديس فرانسس رسول الفقر فى عمل من أعماله الفنية الرائعة الباقية من عصر النهضة .

وكان لا يزال فى شرخ الشباب حين استدعاه الكردنال استفانستشى

obeikandi.com

Stefaneschi إلى رومة ليصور له بالفسيفساء صوره « الفنية الصغرى navicella » التي تمثل المسيح ينقذ بطرس من الموج . ولا يزال هذا النقش باقياً إلى اليوم ، وإن كان قد أدخل عليه تغيير كبير ، فى دهليز كنيسة القديس بطرس فى مكان غير ظاهر فوق عمد المدخل ومن خلفها . وأكبر الظن أن هذا الكردنال نفسه هو الذى كلفه بعمل صورة الملاك المجنح المحفوظة فى الفاتيكان ؛ وتظهر هذه الأعمال كلها چيتو شخصاً غير ناضج ، قوى التفكير ، ضعيف التنفيذ . ولربما كانت دراسات چيتو لنقوش پيتروكفنليني Pietro Cavanelline الفسيفساتية الموجودة بكنيسة القديسة ماريا فى ترتستيفيرى ، ومعلماته فى كنيسة القديسة تشيتشيليا Cecilia قد ساعدت على تكوين چيتو فى تلك السنين الرومانية ، ولعل النحت الطبيعى الذى قام به نقولو پيزانو قد جعله يحول عنايته من أعمال أسلافه إلى ملامح الأحياء من الرجال والنساء ومشاعرهم . وفى ذلك يقول ليوناردو داڤنتشى : لقد ظهر چيتو وصور ما رآه »(٣٢) ؛ واختفى الجمود البيزنطى من الفن الإيطالى .

ثم انتقل چيتو إلى پدوا وقضى ثلاث سنين يصور على الجص تلك الرسوم الذائعة الصيت التى تزدان بها كنيسة أرينا . ولعله قد التقى فى پدوا بدانتى ، ولعله قد عرفه قبل ذلك فى فلورنس ، فها هو ذا ڤاسازى Vasari ، الممتع على الدوام ، والدقيق الصادق فى بعض الأحيان ، يصف دانتى بأنه « الرفيق والصديق الصدوق » لچيتو(٣٣) ، وها هو ذا يعزو لچيتو صورة لدانتى تكون جزءاً من نقش جصى فى قصر الحاكم فى فلورنس ؛ وترى الشاعر يثنى على المصور ثناء رقيقا مستطابا فى المسلاة الإلهية(٣٤) .

ولما كان عام ١٣١٨ كلفت أسرتان من رجال المصارف هما أسرة باردى Bardi وأسرة پيرتسى Peruzzi چيتو بأن يقص لهما على الجص قصص القديسين فرانسس ، ويوحنا المعمدان ويوحنا المبشر بالإنجيل ، وذلك فى المزارين اللذين كانا يشيدانهما فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقدس)

Sante Croce فى فلورنس . وقد غطيت هذه الرسوم بالجير فيما بعد ، ولكنه كشف عنها فى عام ١٨٥٣ وأعيد تلوينها ، وبذلك لم يبق فيها من عمل چيتو إلا الرسم والتأليف : وكان هذا بعينه مصير المظلمات الذائعة الصيت فى كنيسة القديس فرانسس المزدوجة فى أسيسى . ويحج عدد كبير من الإيطاليين إلى هذا الضريح القائم فوق إحدى الروابى ، ويبدو أن عدد الذين يفدون منهم لمشاهدة الرسوم التى تعزى لتشيابيو Cimabue وچيتو لا يقل عمن يفدون لتكريم هذا القديس أو للتبرك به : وأكبر الظن أن چيتو هو الذى وضع تصميم الموضوعات ورسم الخطوط الخارجية للمظلمات السفلى فى الكنيسة العليا . أما ما بقى فيبدو أنه اكتفى فيه بالإشراف على عمل تلاميذه . وتقص هذه المظلمات التى فى الكنيسة العليا حياة القديس فرانسس بتفصيل قلما حظى المسيح نفسه بسيرة مصورة له تماثل هذه القصـــة فى دقائقها . وهى تمتاز بالبراعة فى التفكير والتأليف ، وباللطف والرقة والتناسق فى الإخراج والتنفيذ ، وتقضى قضاء لا رجعة بعده على الجمود الكهنوتى الذى كان يلازم الأشكال البيزنطية ، ولكنها مع ذلك يعوزها العمق والقوة والنزعة الانفرادية ، فهى فى حقيقة الأمر لوحات مصورة رشيقة خالية من تأثير العاطفة أو دم الحياة : أما مظلمات الكنيسة السفلى فقد كانت أقل من مثيلاتها فى الكنيسة العليا تعرضاً لعوادى الأيام ، وهى تشهد بما طرأ على قدرة چيتو من تقدم . ويبدو أنه هو نفسه الذى قام برسم الصور التى فى مُضَلّى مجدلين ، وأن تلاميذه هم الذين صوروا الرسوم الرمزية التى تشرح الإيمان التى يقسمها الرهبان الفرنسيس بأن يلتزموا حياة الفقر والطاعة والطهر . ولقد كانت قصة فرانسس المصورة فى هذه الكنيسة المزدوجة حافزاً قويا ، بل تكاد تكون مولداً جديداً ، لفن التصوير الإيطالى ، ونشأت منها تقاليد بلغت المثل الأعلى من الكمال فى أعمال الراهب الدمنيكى « الأخ انچلكو Fra Angelico » .

وفى وسعنا أن نقول إن أعمال چيتو كانت فى مجموعها ثورة على الأوضاع الفنية القائمة وقتئذ . ونحن نشعر بأخطائه لأننا نعرف مقدار ما أحدثته الحركة التى بدأها هو من إتقان وبراعة . نحس بأن رسمه ، وصياغته ، ومراعاته لفن المنظور ، وعلمه بالتشريح ، كل هذا ناقص معيب . لقد كان الفن ، كما كان الطب فى عهد چيتو ، قد بدأ تواً فى تشريح الجسم البشرى ، وفى أن يبين موضع كل عضلة ، وعظم ، ووتر ، وعصب ، وتركيبه ووظيفته . وقد أتقن معرفة هذه العناصر رجال من أمثال منتينيا **Mantegena** ومساتشيو **Masaccio** ، وبرع فى هذه المعرفة ميكل أنچلو وبلغ فيها درجة الكمال ، بل كاد يجعل منها معبوداً له ولأمثالة من رجال الفن . أما فى أيام چيتو فقد كان لا يزال من غير المألوف أن يدرس الناس الجسم البشرى عارياً . وكان تصويره يجلل من يقدم عليه بالعار . فإذا كان هذا فما الذى يجعل أعمال جيتو فى پدوا وأسيسى من معالم تاريخ الفن ؟ إن الذى يجعلها هكذا هو التأليف المتزن ، ورسم العين من كل زاوية إلى مركز الاهتمام ، والمهابة المستمدة من الحركة الهادئة ، والتلوين الرقيق المتألق ، وانسياب القصة فى عظمة وجلال ، والاعتدال فى التعبير ولو كان عن المشاعر العميقة ، وعظمة الهدوء الذى يغمر تلك المناظر المضطربة ، وما نشاهده بين الفينة والفينة من نزعة طبيعية فى تصوير الرجال ، والنساء ، والأطفال كما شاهدهم وأحس بهم ، وهم يتحركون فى الحياة لا كما درسهم الفنانون فى ماضى الأيام . تلك هى العناصر التى تألف منها انتصار چيتو على الجمود البيزنطى والكآبة البيزنطية ، وتلك هى أسرار نفوذه الخالد . لقد ظل فن فلورنس مائة عام بعد وفاته يستمد من أعماله حياته وإلهامه .

وجاء فى أعقابه جيلان من الفنانين الذين ساروا على نهجه ، فحذوا حذوه فى موضوعاته وفى طرازه ، ولكنهم قلما كانوا يبلغون ما بلغه من براعة وإتقان ؛ فقد كان تديو جدى **Taddeo Gaddi** تلميذه وابنه فى

العماد يرث عنه فنه ، وكان والد تديو وثلاثة من أبناء تديو الخمسة رسامين ؛ ذلك أن النهضة الإيطالية ، كالموسيقى الألمانية ، كانت تنزع إلى الانتقال فى الأسر من الآباء إلى الأبناء ، وقد ارتقت فيها بانتقال أصولها الفنية وتجمعها فى البيوت والمفاقه(*) والمدارس . وقد بدأ باديو حياته صبياً محترفاً عند چيتو ، وما وافى عام ١٣٤٧ حتى كان هو حامل لواء المصورين الفلورنسيين ؛ وكان حتى بعد أن بلغ تلك المكانة يوقع بإمضاء « تلميذ چيتو الأستاذ الجليل » تكريماً لذكرى أستاذه(٣٥) . وقد أثرى بجده فى فنى التصوير والعمارة ثراء استطاع به بنوه أن يكونوا من أنصار الفن .

ولدينا تحفة فنية ظلت زمناً طويلا تعزى إليه ، ولكنها الآن تعزى إلى أندريا دا فريندسى Andrea da Firenze وهى تبدل على أن إيطاليا فى هذا القرن الأول من عصر النهضة لم تكن قد خرجت بعد من العصور الوسطى . فقد أقام الرهبان الدمنيك حوالى عام ١٣٧٠ فى « كابلا دجلى اسپنيولى Copella degli Spagnuoli أو معبد الأسبانيين فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا صورة يمجدون بها فيلسوفهم الشهير يُرى فيها توماس أكوناس فى وضع راسخ مريح ولكنه بلغ من الخشوع حداً يحول بينه وبين الكهرباء ، ويقف وقفة الظافر والزنديقان أريوس ، وسابيوس ، والفيلسوف ابن رشد يتمرغون تحت قدميه ، ومن حوله موسى ، ويوحنا المبشر الإنجيلى وغيرهم من القديسين ، وقد بدوا كأنهم أتباع له ، ومن تحتهم أربع عشرة صورة ترمز إلى سبعة علوم مطهرة وسبعة دنسة ، منها نحو دوناتوس Donatus وبلاغة شيشرون ، وقانون چستنيان ، وهندسة إقليدس وما إليها . والفكرة التى أوحت بهذه الصورة لا تزال كلها من أفكار العصور الوسطى ؛ أما الفن وحده فى تصميمه ولونه فيدل على بزوغ فجر عهد جديد من ظلمات العهد القديم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر

(*) جمع مفقه وهو المشغل والمرسم Studio . (المترجم)

الناس معه بأنهم فى عالم جديد إلا بعد مائة عام من ذلك الوقت .

ويبدو التقدم فى التنفيذ الفنى أوضح وأكثر جلاء فى أعمال أركانيا Arcagna الذى لا يسمو عليه أحد من الفنانين الإيطاليين فى العصور الوسطى إلا چيتو وحده ؛ وكان اسمه الأصلى أندريا دى تشيونى Andrca di Cioni ، لكن معاصريه المعجبين به سموه أركانيولو Arcagnolo أى الملاك الأعظم ؛ ثم اختصرت الألسنة الكسولة هذا الاسم فجعلته أركانيا ؛ وكثيراً ما يعد هذا الفنان من بين أتباع چيتو ، ولكنه كان فى واقع الأمر من تلاميذ المثال أندريا بيزانو Andrea Pisano . وكان أركانيولا بارعاً فى فنون كثيرة شأنه فى هذا شأن أعظم العباقرة فى عصر النهضة . وهو بوصفة رساماً قد صور لمعبد استرتشى Strozzi فى سانتا ماريا نوڤلا غطاء ملوناً للمحراب مثل عليه المسيح جالساً على عرشه ، كما أنشأ أخوه الأكبر ناردو Nardo على الجدران مظلمات واضحة تمثل الجنة والنار (١٣٥٤ — ١٣٥٧) . ونخطط بوصفه مهندساً معماريا التشرتودسا Certoza أو الدير الكرثوذى Carthusian بالقرب من فلورنس ، وهو الدير الذى اشتهر بطرقه المسقوفة الجميلة وما احتواه من مقابر أتشيايولى (Aceiaiuoli) . ونفذ هو ووالده بوصفهما مهندسين ومثالين الهيكل المزخرف فى « أورسان متشيلى Or San Micchele » فى فلورنس . وفى هذا الهيكل صورة العذراء كان الناس يعتقدون أنها تفعل المعجزات ، ولهذا فإنه لما زال وباء الموت الأسود الذى اجتاح أوربا عام ١٣٤٨ بلغت النذور التى قدمها لها الذين نجوا من الوباء من الكثرة درجة اغنى منها الرهبان القائمون على خدمة البناء ، وتقرر بعدئذ أن يضم هذه الصورة ضريح مقام من الرخام والذهب . واختطه تشيونى على شكل كنيسة قوطية مصغرة ذات عمد ، وأبراج مستدقة ، وتماثيل ، ونقوش بارزة ، ومعادن ثمينة ، وأحجار غالية ، فهى والحالة هذه درة من زخرف القرن الرابع عشر . وذاعت بفضلها شهرة أندريا فعين كبير الفنانين فى أرڤيتو Orvieto واشترك فى تخطيط واجهة كنيستها . ثم عاد

إلى فلورنس فى عام ١٣٦٢ وأخذ يعمل فى الكنيسة العظيمة إلى يوم وفاته .

وكانت شهرة سانتا ماريا دل فيورى Santa Maria del Fiori — أكبر الكنائس التى بنيت فى إيطاليا حتى ذلك الوقت — قد بدأت من عهد أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى عام ١٢٩٦ ، وتتابع عليها عدد من كبار الفنانين بعضهم فى إثر بعض ظلوا يعملون فيها حتى هذا اليوم ، ونذكر من هؤلاء چيتو ، وأندريا بيزانو ، وفرانتشسكو تالنتى وغيرهم ؛ ويرجع تاريخ واجهتها الحالية إلى عام ١٨٨٧ ، ولا تزال الكنيسة الكبرى ناقصة إلى هذا اليوم ، ولا بد أن يعاد بناء جزء كبير منها فى كل قرن . وسبب ذلك أن العمارة كانت أقل الفنون نجاحاً فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، لأنها أخذت فى غير حماسة أو اهتمام من الشمال بعض عناصر العمارة القوطية كالعقد المستدق ، وجمعت بينها وبين العمد المأخوذة من العمارة القديمة ، ثم شادت فوق هذه كلها فى بعض الأحيان القبة ذات الطراز البيزنطى . فكان هذا خليطاً غير متناسق العناصر ، إذا استثنينا منه بعض الكنائس الصغرى من عمل برامنتى Bramante حكمنا بأنه تعوزه الوحدة والرشاقة . وكانت واجهة أرفيتو وسينا Siena مظهراً فخماً لفن النحت والفسيفساء أكثر منها مظهراً لفن العمارة الصحيح ؛ وإن العناية الشديدة بإبراز الخطوط المستقيمة والتنشئة من وجود طبقات متتالية من الرخام الأسود والأبيض فى جدرانها ، لما يسبب الانقباض للعين والنفس ، مع أن معنى الكنيسة نفسه يجب أن يكون هو الضراعة أو الابتهال الصادرين إلى السموات العلى . وإن من العسير أن نعد كنيسة سانتا ماريا دل فيورى — وهو الإسم الذى أطلق على كنيسة فلورنس بعد عام ١٤١٢ ، وقد اشتق اللفظ الأخير — فيورى) من الزنبقة المرسومة على شعار المدينة — زهرة من الأزهار . ولولا القبة الشهيرة التى أنشأها برونلسكو Brunellesco لعدت كهفاً قد يكون فراغه المظلم هو فم جحيم دانتى بدل أن يكون بيتاً لله .

وكان أرنلفو دى كمبيو ، الرجل المجد الذى لا تنفد قواه ، هو الذى بدأ كنيسة الرهبان الفرنسيس المسماة سانتا كروتشى أو الصليب المقدس فى عام ١٢٩٤ ، والذى بدأ أيضاً فى عام ١٢٩٨ أجمل بناء فى فلورنس كلها ، وهو پلاتسا دلا ســـنيورا Palazz della Signora الذى تعرفه الأجيال المتأخرة باسم پلاتساڤيتشيو ؛ وتم بناء الكنيسة فى عام ١٤٤٢ ما عدا واجهتها التى تمت فى عام ١٨٦٣ ؛ أما الپلاتسا دلا سنيورا المعروفة أيضاً باسم القصر القديم فقد تمت أجزاؤها الرئيسية فى عام ١٣١٤ . وكانت هذه هى السنين التى شهدت نفى دانتى ووالد پترارك ؛ ذلك بأن النزاع الحربى كان وقتئذ على أشده ، ولهذا شاد أرنلفو لحاكم المدينة حصناً لا قصراً وجعل من سقفه معاقل ذات مزاغل ، وكان برج الجرس الفريد فى نوعه يدعو برنين جرسه أهل المدينة إلى الاجتماع فى مجلسها النيابى أو إلى حمل السلاح . ولم يكن كبراء المدينة Priori, Signori يحكمون من هذا المكان فحسب ، بل كانوا أيضاً يعيشون فيه ؛ وتظهر روح ذلك العصر فى القانون الذى ينص على أن أولئك الكبراء لم يكن يجوز لهم أن يغادروا البناء لأى سبب كان . وأقام نبرى دى فيوراڤنتى Neri di Fioravante فوق نهر الآرنو جسرا من أشهر جسور العالم هو جسر ڤيتشيو Ponte Vecchio الذى تصدع الآن بفعل الأيام والحروب ، ولكنه لا يزال ينوء بحمل حركة المرور واثنين وعشرين حانوتا . وكانت تقوم حول هذه الصروح الضخمة ، التى أنشأها أهل فلورنس مدفوعين بروحهم الوطنية ، فى الشوارع الضيقة المؤدية من الكنيسة وميادين سنيوريا Signoria ، كانت تقوم حولها بيوت الأغنياء المعذبين ، وكانت لا تزال وقتئذ بيوتاً متواضعة ، والكنائس الفخمة التى استحال فيها ذهب التجار فنا ، وحوانيت التجار والصناع الصاخبة والمساكن المزدحمة التى تقيم فيها جمهرة الشعب المجـــد ، الثائر ، السريع الاهتياج ، الذكى . وفى جنون هذه العناصر ولدت النهضة .

الفصل السابع

ديكمرون

كانت فلورنس هى المدينة التى أحرزت فيها الآداب الإيطالية أعظم انتصاراتها ، ففيها خلع جوندسيلى Guenzlli وكفلكنتى Cavalcanti فى أواخر القرن الثالث عشر على الأغنية صورتها المصقولة ؛ وأرسل دانتى الشاعر الفلورنسى أولى نغمات شعر الملاحم الإيطالى وآخرها فى الحنين إلى فلورنس وإن لم ينشد هذه النغمات فيها نفسها ، وفيها ألف بوكاتشيو أعظم كتاب فى النثر الإيطالى ، وكتب چيوڤنى ڤلانى Giovanni Villani أكثر تواريخ العصور الوسطى الإخبارية اتفاقاً مع النزعة التاريخية الحديثة . . ذلك أن أڤلانى زار رومة أيام الاحتفال بعيد عام ١٣٠٠ وتأثر كما تأثر جبن Gibbon فيما بعـــد بما خلفه ماضيها العظيم من أطلال خربة فخطر له فى تلك اللحظة أن يسجل تاريخ المدينة ؛ ثم رأى أن رومة قد نالت كفايتها من تخليد ذكراها ، فحول فكره إلى موطنه الأصلى وقرر أن « يحشد فى هذا المجلد . . . جميع ما وقع فى مدينة فلورنس من أحداث . . . وأن يقص أعمال أهل فلورنس كاملة ، وأن يورد فى إيجاز الشئون الهامة فى سائر العالم »(٢٦) .

وبدأ تاريخه ببرج بابل وختمه بالأحداث التى وقعت قبيل الموت الأسود الذى مات هو فيه ؛ وأتم القصة أخوه ماتيو Matteo وفلپو Philippo ابن أخيه حتى بلغا بها عام ١٣٦٥ . وكان چيوڤنى حسن الاستعداد للعمل الذى اضطلع به . فقد كان ينتسب إلى أسرة ثرية من التجار ، وكان متمكناً من اللغة التسكانية الخالصة ، وقد طاف بأنحاء إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا ، وعمل ثلاث مرات مختلفة رئيسا للدير ،

ومرة مديراً لدار سك النقود ؛ وكان لديه إحساس غير عادى ، بالنسبة لتلك الأيام ، بالأسس والعوامل الاقتصادية التى تعمل فى التاريخ ؛ وكان هو أول من أدخل فى قصته إحصاءات عن أحوال البلاد الاجتماعية فجعلها بذلك طريفة ممتعـــة . ومعظم ما فى الثلاثة الكتب الأولى من « تاريخ فلورنس الإخبارى » قصص خيالية ، أما ما تلاها من الكتب فتحدثنا أن فلورنس وما وراءها من الأرضين كان يسكنها فى عام ١٣٣٨ مائة ألف وخمسة آلاف من السكان ، سبعة عشر ألفاً منهم متسولون ، وأربعة آلاف يعيشون من الإعانات العامة ، وأنه كان بالمدينة ست مدارس ابتدائية يؤمها عشرة آلاف ولد وبنت ، وأربع مدارس ثانوية يتعلم فيها ستمائة ولد وقليل من البنات « النحو » (أى الأدب) . و « المنطق » (الفلسفة) . وقد فعل ڤلانى ما لم يفعله غيره من المؤرخين فضمن كتابه ملاحظات عما هنالك من كتب ، وصور ، ومبان ، جديدة ، حتى ليصح القول بأننا قلما نعرف أن مدينة أخرى قد وصفت جميع مظاهر حياتها وصفاً مباشراً كما وصفت فلورنس ؛ ولو أن ڤلانى قد سلك كل هذه المناحى والتفاصيل فى قصة موحدة من العلل ، والمظاهر ، والشخصيات ، والنتائج لجعل من كتابه الإخبارى تاريخا حقيقيا .

واستقر بوكاتشيو فى فلورنس عام ١٣٤٠ وظل يطارد المرأة فى الحياة والشعر والنثر . فقد أهدى امورازا فزيونى Amorasa Visioni إلى فيامتا Fiametta واسترجع فى ٤٤٠٠ بيت أيام صلتهما السعيدة . ويتفق بوكاتشيو فيامتا الأميرة غير الشرعية المولد فى رواية نفسانية بقصة انحرافها مع بوكاتشيو وتحلل نشوات الحب القوية ، وآلام العاطفة ، والغيرة ، والهجران بتفصيلات وافية ، وحين يؤنبها ضميرها على عدم وفائها تتمثل أفروديتى توئنبها على جبنها وتقول : « لا تجبنى وتقولى إن لى زوجا وإن القوانين المقدسة والوعود تحرم هذه الأشياء علىّ لأن هذا

كله غرور كاذب واعتراضات حمقاء طائشة على قوة الحب : ذلك أن الحب يفرض قوانينه الأبدية كأنه أمير قوى عظيم ، ولا يبالى بغيرها من القوانين التى هى أقل منها شأنا . والتى يراها قواعد منحطة دنيئة(٣٧) . ويسىء بوكاتشيو استخدام قلمه فيختم كتابه بأن ينطق فيامتا تمجيداً له وتعظيما بأنه هو الذى هجرها وليست هى التى هجرته . ويعود بوكاتشيو إلى الشعر فينشد فى **نيفالى فيزوولانو** حب أحد الرعاة لكاهنة من كاهنات ديانا ؛ ويصف فى دقة العاشق الواله ظفره بها بحماسة احتفظ بها للمناظر الطبيعية . وتكاد هذه القصـــة تكون هى الأساس الذى بنى عليه *ديكمرون* .

وقد بدأ بوكاتشيو يكتب هذه السلسلة الذائعة الصيت والمتصلة الحلقات من قصص الإغواء بعد طاعون عام ١٣٤٨ بزمن قليل . وكان وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره وكانت حرارة الشهوة قد نزلت من الشعر إلى النثر ، وشرع يدرك ما فى مطاردة النساء الجنونية من فكاهة . ويبدو أن فيامتا نفسها قد ماتت بالطاعون ، وأن بوكاتشيو قد هدأ هدوءاً يكفى لأن يستخدم الاسم الذى أطلقه عليها ليسمى به واحدة من أقل الفتيات الراويات فى كتابه . ولم ينشر الكتاب كله إلا فى عام ١٣٥٣ وإن كان بعضه قد نشر من قبل على أجزاء متقطعة ؛ وشاهد ذلك أن المؤلف يجيب وهو يمهد لليوم الرابع عما يوجه إلى القصص السابقة من نقد . والكتاب فى صورته التى لدينا الآن مؤلف من مائة قصة ، مائة قصة كاملة . ولم يكن يقصد بها أن يقرأ عدد كبير منها دفعة واحدة ؛ وما من شك فى أنها وقد نشرت متتابعة قد اتخذت موضوعات للسمر فى كثير من الأماسى الصور .

وتصف المقدمة ما كان للموت الأسود الذى اجتاح أوربا بأكملها فى عام ١٣٤٨ وما بعدها من آثار فى مدينة فلورنس . ويبدو أن المرض قد

نشأ من خصب السكان الأسيويين وقذارتهم وما انتابهم من الفقر بسبب الحرب ، والضعف بسبب المجاعة ، فامتد الوباء من بلاد العرب إلى مصر ، ومن البحر الأسود إلى الروسيا وبلاد بيزنطية ؛ ثم نقله تجار البندقية ، وسرقوسة ، وپيزا ، وجنوى ، ومرسيليا وسفنها من القسطنيطنية والإسكندرية وغيرهما من ثغور الشرق الأدنى بمساعدة البراغيث والفئران إلى إيطاليا وفرنسا . وأكبر الظن أن سنى القحط المتعاقبة التى حلت بأوربا الغربية — ١٣٣٣ — ١٣٣٤ ، ١٣٣٧ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٥ — ١٣٤٧ — قد أوهنت ما كان للفقراء من قوة المقاومة ، ثم نقل الوباء إلى سائر الطبقات(٣٩) . وانتشر الوباء فى صورتين : طاعون رئوى مصحوب بحمى عالية وبصاق دموى ويؤدى إلى الموت فى خلال ثلاثة أيام من بدء الإصابة ، ودملى مصحوب بحمى وخراجات وجمرات ويؤدى إلى الموت فى خلال خمسة أيام . وقضى الطاعون فى هجماته المتعاقبة على نصف سكان إيطاليا بين عامى ١٣٤٨ و ١٣٦٥(٤٠) وكتب مؤرخ إخبارى حوالى عام ٣٥٤ يصفه فقال :

لم يكن يصحب الجثث إلى قبورها أحد من أهل المتوفى أو أصدقائه القساوسة أو الرهبان ، ولم تكن تتلى عليها صلاة الجنازة .... وحفرت فى كثير من أنحاء المدينة خنادق ألقيت فيها الجثث ، وغطيت بطبقة رقيقة من التراب ؛ وتلتها طبقة بعد طبقة حتى امتلأ الخندق ثم بدئ بحفر خندق جديد . وقد دَفَنْتُ أنا أنيولو دى تورا Agnolo di Tura ... بيدى خمسة من أبنائى فى خندق واحد ، وفعل هذا بعينه كثيرون غيرى . وكانت الطبقة التى غطيت بها جثث بعض الموتى رقيقة إلى حد جعل الكلاب تخرجها وتنهشها وتنشر أعضاءها فى جميع أنحاء المدينة . ولم تدق أجراس ، ولم يبك الموتى مهما فدح الخطب لأن كل إنسان تقريبا كان يترقب الموت .... وكان الناس يقولون إن « هذه هى آخر العالم » ويؤمنون بما يقولون(٤١) .

ويقول ماثيو فلانى إن ثلاثة من كل خمسة من سكان فلورنس ماتوا بين شهرى إبريل وسبتمبر من عام ١٣٤٨ ؛ وقدر بوكاتشيو عدد من بات من أهل فلورنس بستة وتسعين ألفا(٤٢) . وتلك بلا ريب مغالاة واضحة لأن سكان المدينة لا يكادون يزيدون وقتئذ على مائة ألف . ويبدأ بوكاتشيو كتاب ديكمرون بوصف مروع للطاعون يقول فيه :

ولم يكن الاتصال بالمرضى أو التحدث إليهم وحدهما ينقلان العدوى إلى الأصحاء . بل يبدو أن مجرد لمس ثياب أولئك المرضى أو أى شىء آخر مسوه أو استعملوه كان يكفى لنقل المرض . . . وكان أى شىء مما يملكه الموتى أو المصابون بهذا الوباء إذا أمسه حيوان . . . مات بعد وقت قليل . . . وتلك أمور شاهدتها بعينى رأسى . وقذفت هذه المحنة الرعب فى قلوب الناس جميعاً . . . فتخلى الأخ عن أخيه . والعم عن ابن أخيه ، . . . وكثيراً ما تخلت الزوجة عن زوجها . بل حدث ما هو أعجب من هذا وما لا يكاد يصدقه العقل ، وهو أن بعض الآباء والأمهات رفضوا أن يزوروا أبناءهم أنفسهم أو يعنوا بهم كأنهم ليسوا منهم . . . وافترس المرض فى كل يوم آلافا من عامة الشعب لأنهم لم يجدوا من يرعاهم أو يعمل لإنقاذهم ؛ وماتوا وهم لا يكادون يجدون ملجأ أو معونة . ولفظ الكثيرون منهم آخر أنفاسهم فى الطرقات ، ومات كثيرون غيرهم فى بيوتهم ولم يعرف جيرانهم خبر موتهم إلا من رائحة أجسامهم المتعفنة لا من أية وسيلة أخرى ؛ وامتلأت المدينة بهؤلاء وأولئك وغيرهم من الأموات . وأخرج الجيران جثث الموتى من منازل أصحابها ووضعوها أمام أبوابها مدفوعين إلى ذلك بخوفهم أن يتعرضوا هم للخطر بسبب تعفن هذه الجثث لا بأى شعور بالرحمة نحو هؤلاء الأموات ؛ ولهذا كان المارة وبخاصة فى الصباح يرون من الجثث ما يخطئه الحصر . وكانوا حينئذ يجيئون بالتوابيت فإذا أعوزتهم جاءوا بألواح من الخشب وحملوهم عليها ؛ ولم يكن الأمر مقصوراً على أن يحمل التابوت الواحد جثتين أو ثلاث

جثث مجتمعة ، أو أن يحدث هذا مرة واحدة ، بل إنك لتستطيع أن تجد توابيت كثيرة وقد وضع فيها الزوج وزوجته ، وأخوان أو ثلاثة إخوة ، وأب وابنه ، وما إلى هذا وأمثاله ... ووصل الأمر إلى حد لم يكن الناس معه يحصون من مات من الخلائق إلا كما يحصى الناس عدد الماعز فى هذه الأيام(٤٣) .

ويرسم بوكاتشيو صورة كتابه ديكمرون من مناظر الخراب السالفة الذكر ، وقد وضعت خطة إخراجه فى « كنيسة سانتا ماريا نوڤلا المعظمة » على أيدى « سبع فتيات ترتبط كل واحدة منهن بالأخريات برباط الصداقة أو الجيرة أو القرابة ، وقد استمعن تواً إلى القداس . وتتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين من العمر » . وكلهن ذوات فطنة ، ونبل ، وجمال ، وآداب عالية ، مرحات مرحاً يزينه الشرف : « وتقترح إحداهن أن يقللن من خطر عدوى الطاعون بالرجوع إلى بيوتهن الريفية مجتمعات لا فرادى ، وأن يأخذن معهن خدمهن ، وأن ينتقلن من بيت ريفى إلى آخر وأن « يستمتعن بالمرح واللهو الذى يتيحه ذلك الفصل من فصول السنة ... فهناك نستطيع أن نستمع إلى تغريد الطير ، ونرى التلال والسهول وقد اكتست بحلة سندسية ، والحقول وقد امتلأت بالقمح يتماوج فيها تماوج ماء البحر ، وفيها نرى آلافاً من أنواع الثمر ، ونشاهد وجه السماء مبسوطاً للناظرين ، لا يحجب عنا جماله ، وإن كان مغضباً علينا »(٤٤) . وتوافق الفتيات على هذا الاقتراح ، ولكن فلومينا Filomena تدخل عليه بعض التحسين فتقول : « إننا نحن النساء متقلبات ، عنيدات ، شديدات الريبة ، خوارات العود » ولهذا فقد يكون من الخير أن يكون معنا بعض الرجال . وساقت إليهن الأقدار فى تلك اللحظة ثلاثة رجال « ثلاثة شبان دخلوا عليهن الكنيسة ... لم تقو صروف الزمان ، أو فقد الأهل والأصدقاء . . . أن تنال منهم فنطفئ . . . نار الحب الملتهبة فى قلوبهم . . . وكانوا جميعاً ذوى لطف وأدب جم وتربية عالية ، وقد

خرجوا جميعا يبحثون عن أعظم سلوى لهم ... وهى رؤية عشيقاتهم . واتفق أن كانت أولئك العشيقات الثلاث من بين السبع الفتيات السالفات الذكر » . وتشير بمينيا على صاحباتها أن يدعى أولئك الشبان للانضمام إلى جماعتهن فيخرجوا معهن إلى الريف ، وتخشى نيفيلى Neifile أن يؤدى هذا إلى القيل والقال ، فترد عليها فلومينا بقولها : « ما دمت أحافظ على شرفى ، ولا أفعل ما يؤنبنى عليه ضميرى ، فلست أبالى بما يقول الناس غير هذا » .

ويتم الاتفاق وتبدأ الرحلة فى يوم الأربعاء التالى يتقدمهم الخدم يحملون الطعام ميممين شطر بيت ريفى على مسيرة يومين من فلورنس « يتوسطه فناء جميل رحب ، وأبهاء ، وحجرات للاستقبال ، وأخرى للنوم ، كل واحدة منها ذات جمال ، مزدانة بصور تسر النفس ، وتحيط بها خمائل وأرض ذات كلأ ، وحدائق عجيبة غناء ، وعيون ماء بارد زلال ، وسراديب ملأى بالخمر الغالى الثمن »(٤٤) . وتنام الفتيات والشبان بعد أن يمضى من الليل معظمه ، ويفطرون على مهل ، ويتنزهون فى الحدائق ، حتى إذا تعشوا آخر الأمر أخذوا يسلون أنفسهم بالقصص التى تتفق مع هذا الأسلوب من الحياة . وتتفق الجماعة على أن يقص كل فرد من أفرادها العشرة قصة فى كل يوم من أيام النزهة . ويقضون فى الريف عشرة أيام (ومن ثم اشتق اسم الكتاب من الكلمتين اليونانيتين ديكا همراى Deka hemerai أى عشرة أيام) وتكون النتيجة أنك تجد فى مجموعة بوكاتشيو المرحة قصة تعارض كل مقطوعة من مقطوعات دانتى المكتئبة المحزنة . وتضع الجماعة قاعدة تحرم على أى عضو من أعضائها « أن ينقل من الخارج أى خبر غير سار » .

ويندر أن تكون القصص التى يبلغ متوسط طول الواحدة منها ست صفحات من ابتكار بوكاتشيو نفسه ؛ بل إنه جمعها من المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، ومن كتاب الشرق ومن أقاصيص العصور الوسطى ؛

والقصص والخرافات الفرنسية ، والأقاصيص الشعبية المنتشرة فى إيطاليا نفسها : وآخر قصص الكتاب وأوسعها شهرة قصة جريزلدا Griselda الصابرة التى بنى عليها تشوسر Chaucer واحدة من أحسن وأسخف قصص كنتربرى Canterbury Tales : أما أجمل قصص بوكاتشيو فهى القصة التاسعة التى تروى فى اليوم الخامس — قصة فدريجو Federigo ، وصقره وحبه ، والتى تحوى من التضحية ما لا يكاد يقل عن تضحية جريزلدا : أما أكثرها فلسفة فهى قصة الخواتم الثلاثة (الكتاب الأول — القصة الثالثة) ومضمونها أن صلاح الدين « سلطان بابل » يحتاج إلى المال فيدعو ملشيزدك Melchisedek اليهودى الثرى إلى العشاء معه ويسأله أى الأديان الثلاثة أحسنها — اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ؟ ويخشى الشيخ اليهودى الحكيم أن يقول ما يعتقد فيجيب عن هذا السؤال بقصة رمزية :

كان يعيش فى الأيام الخالية رجل عظيم الشأن كثير المال ، وكان من بين ما عنده من الجواهر الثمينة فى كنوزه خاتم عظيم غالى الثمن . . . وأراد أن يورث هذا الخاتم أبناءه من بعده وأن يبقى عندهم إلى أبد الدهر ، فأعلن أن الذى يوجد منهم عند وفاته ممتلكا للخاتم تنفيذاً لوصيته يجب أن يعترف به وارثا له ، وأن يقر له سائر الأبناء بالزعامة والرياسة ، وأن يعظموه ويوقروه . وأتبع من أوصى له بالخاتم هذه الخطة نفسها مع أبنائه هو ، ففعل مثل ما فعل والده . وقصارى القول أن الخاتم أخذ يتنقل من يد إلى يد أجيالا طوالا حتى وصل آخر الأمر إلى يد رجل له ثلاثة أبناء صالحين فاضلين كلهم مطيعون لأبيهم أحسن إطاعة ، ومن أجل هذا كان الأب يسوى بينهم جميعاً فى حبه . وكان الأبناء يعرفون قيمة الخاتم وفائدته ، ويريد كل منهم أن يكون هو أعظم الثلاثة قدرا بين قومه . . . ولهذا أخذ كل واحد منهم يرجو أباه — وكان قد بلغ الشيخوخة — أن يوصى له بالخاتم . . . ولم يكن ذلك الرجل الصالح يدرى كيف يختار من بين أبنائه من يفضله على أخويه فيوصى له بالخاتم ،

ففكر . . فى أن يرضيهم هم الثلاثة وعهد فى السر إلى صانع ماهر أن يصنع له خاتمين آخرين يشبهان الخاتم الأول شبها يكاد يعجز معه هو نفسه عن أن يعرف أيها الحقيقى وأيها المقلد . فلما قربت منيته أعطى كل واحد من أبنائه خاتمة سراً ، فلما مات الأب وأراد كل واحد من الأبناء أن يرث المال والشرف دون غيره من أخويه أظهر خاتمه يؤيد به حقه . وإذ كانت الخواتم الثلاثة متشابهة كل الشبه فقد كان من غير المستطاع معرفة الخاتم الأصيل . وتأجل من ثم الفصل فى أى الثلاثة يرث أباه ، ولا يزال ذلك مؤجلا حتى الآن . وكذلك أقول لك يا مولاى : إن كل شعب من الشعوب الثلاثة يرى أنه هو الذى يرث من الله شريعته الحقة ووصاياه من بين الشرائع الثلاثة التى أنزلها الله أبو الخلق على هذه الشعوب ؛ أما أى شعب منها هو صاحب هذه الشريعة وتلك الوصايا فإن هذا لم يعرف بعد ، وشأن ذلك شأن الخاتم سواء بسواء .

وتوحى هذه القصة بأن بوكاتشيو وهو فى السابعة والثلاثين من عمره لم يكن مسيحيا متعصبا لمسيحيته . وخليق بنا أن نوازن بينه وبين تعصب دانتى وما قاله عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)(٤٦) . وفى القصة الثانية من قصص ديكمرون نرى اليهودى يحنات يعتنق الدين المسيحى بعد اقتناعه بالحجة التى أوردها ڤلتير وهى أن المسيحية دين منزل من عند الله ما فى ذلك شك ، لأنها قد بقيت بعد ما فشا بين رجال الدين من فساد فى الأخلاق ، وارتشاء ، وبيع للمناصب الدينية ، ويسخر بوكاتشيو بالنسك ، والطهارة ، والاعتراف الدينى ، والمخلفات المقدسة ، والقساوسة ، والرهبان ، وجماعات الإخوان ، والراهبات ؛ وإضفاء صفة القداسة على الصالحين . ويرى أن الكثرة الغالبة من الرهبان قوم مراءون منافقون ، ويسخر من « البلهاء » الذين يقدمون لهم الصدقات (الكتاب السادس ؛ القصة العاشرة) . وتحدثنا واحدة من أكثر قصصه مرحا عن الراهب تشيپلا Cipalla وكيف أراد أن يجمع مبلغاً كبيراً من المال فوعد مستمعيه

أن يعرض عليهم « أثرا مقدسا أعظم التقديس ، وهو ريشة من ريش الملاك جبريل بقيت فى حجرة مريم العذراء بعد أن بشرها بمولد المسيح (الكتاب السادس القصة العاشرة) . أما أكثر هذه القصص بذاءة وفحشا فهى التى تروى كيف أشبع الشاب ماستو Masetto الشَّبِق شهوة دير للنساء بأكمله (الكتاب الثالث — القصة الأولى) . وفى قصة أخرى يروى بوكاتشيو كيف زنى الراهب رينالدو Rinaldo بزوجة رجل ، ثم يسأل راوى القصة : « ومَن مِن الرهبان لا يفعل هذا » (الكتاب السابع القصة الثالثة) .

وتظهر السيدات فى كتاب **ديكمرون** شيئاً من الحياء حين يستمعن إلى هذه القصص ، ولكنهن يستمتعن بما تحويه من فكاهة شبيهة بفكاهة ربليه Rabclais وتشوسر . وتقص فلوميتا ، وهى فتاة ذات آداب راقية ، قصة رينالدو ، ويقول بوكاتشو فى أسوأ صورة من صوره إن « السيدات كن فى بعض الأحيان يواصلن الضحك زمنا يكفى لخلع أسنانهن جميعها »[٤٧] . ويرجع هذا النحو الذى نحاه بوكاتشيو فى قصصه إلى أنه قد نشأ وسط مرح نابلى الطليق ، وإنه إذا ما فكر فى الحب كان فى أغلب الأحيان يفكر فى معناه الشهوانى ؛ أما حب الفروسية والشهامة فكان يسخر منه ، وكان موقفه من دانتى كموقف سانكوپانزا من دون كيشوت ؛ ويبدو أنه كان يؤمن بالحب الطليق مع أنه قد تزوج مرتين[٤٨] . وتراه بعد أن يقص نحو عشرين قصة لا يصح أن يتحدث بها اليوم بين جماعة من الذكور ينطق أحد الرجال بعبارة يقولها للسيدات : « لم ألاحظ قط أى عمل ، أو لفظ ، أو كلمة ، أو أى شىء ناب صدر منكن أو من الرجال » . ويعترف المؤلف فى ختام كتابه بصحة بعض ما يوجه من النقد إلى ما فى الكتاب من فحش وخاصة « لأنى قلت الحق عن الرهبان فى مواضع كثيرة » . وهو فى الوقت ذاته يهنئ نفسه على ما بذله من « جهد طويل أتم فيه عمله على أكمل وجه بمعونة الله » .

ولا يزال **ديكمرون** من روائع الأدب العالمى ؛ ويرجع سبب شهرته

إلى أخلاقه أكثر مما يرجع إلى فنـــه ، ولكنه حتى لو خلا من كل ما يجافى الخلق الكريم لكان مع ذلك خليقا بالبقاء : وليس فى بناء الكتاب شىء من النقص — وهو يسمو من هذه الناحية على كتاب **قصص كنتربرى** . وقد ارتفع نثره بالأدب الإيطالى إلى مستوى لم يسم عليه قط ، وهو نثر قد يكون فى بعض الأحيان معقدا أو مزخرفا ، ولكنه فى معظمها بليغ ، جذل ، لاذع ، مطرب ، صاف صفاء النبع الجبلى . إنه كتاب فى حب الحياة ، وقد استطاع بوكاتشيو فى غمرة أكبر كارثة حلت بإيطاليا فى مدى ثمانين عاما أن يجد فى نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يرى الجمال ، والفكاهة ، والطيبة ، والمرح لا تزال تمشى على الأرض ؛ وتراه فى بعض الأحيان ساخرا كما تتبين ذلك فى هجوه الخالى من الشهامة للنساء فى الكرباتشيو Corbaccio : لكنه كان فى **ديكمرون** شبيها بربليه فى ضحكه العالى ومرحه ، يتقبل ما تعطيه الحياة إياه وما تأخذه منه ، ويرضى منها ومن الحب بمتاعهما وسقطاتهما : ولقد شهد العالم نَفْسه مصورا فى الكتاب رغم ما فيه من مغالاة ومن صور هزلية : ولقد ترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، ونقل هانز ساكس Hans Sachs ولسنج Lessing ، وموليير Molière ولافنتين La Fontaine ، وتشوسر Chaucer ، وشيكسبير نقل هؤلاء كلهم صحفا منه أعجبوا بها كل الإعجاب : وسيظل الكتاب متعة للقراء بعد أن يكون جميع شعر پترارك قد انطوى فى عالم الكتب التى يمدحها الناس ولا يقبلون على قراءتها .

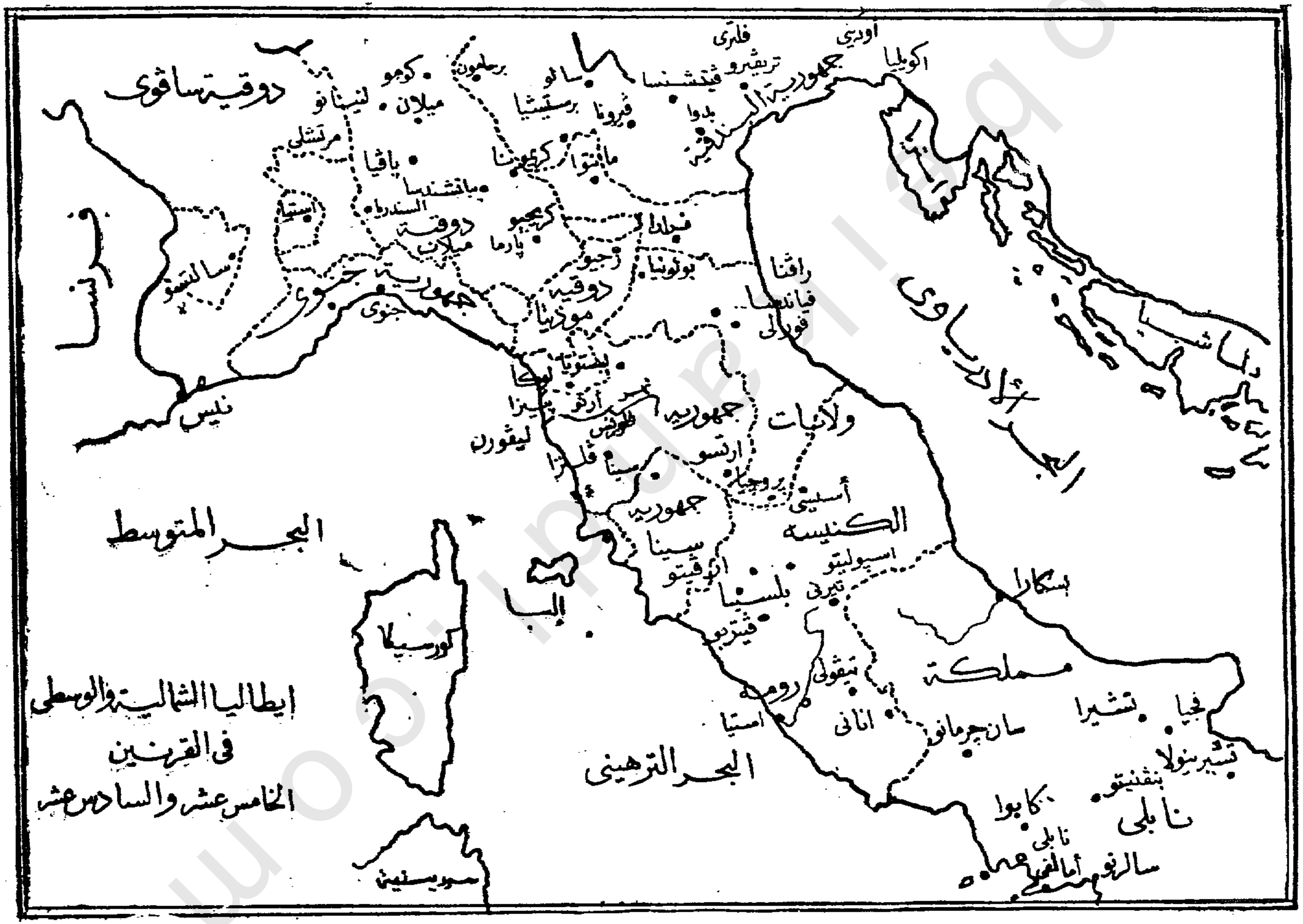

(الخريطة رقم ٢)

Sobeikan.com

الفصل الثامن

سينا

وكانت سينا خليقة بأن تتحدى ادعاء فلورنس بأنها مهد النهضة . ففيها أيضاً رفعت حدة الانقسامات الحزبية من حرارة التفكير ، وغذى زهو المدينة باستقلالها شجرة الفن ، وأمدت صناعة الصوف وصادرات المدينة إلى البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، والتجارة المتبادلة بين فلورنس وروما مارة بطريق فلامينا Via Flamina ، بقدر لا بأس به من الثراء ؛ فلم يحل عام ١٤٠٠ حتى كانت ميادينها وشوارعها الرئيسية مرصوفة بالآجر أو الحجارة ، وحتى بلغ فقراؤها من الثراء درجة شجعتهم على القيام بثورة ، ذلك أن العمال فى صناعة الخشب حاصروا القصر العام Palazza Pubblico فى عام ١٣٧١ ، وحطموا أبوابه ، وطردوا منه حكومة رجال الأعمال ، وأنشأوا **حكومة الفقراء** . ولم تمض على قيام هذه الحكومة إلا بضعة أيام حتى قام جيش مؤلف من ألفى رجل جهزه ذوو المصالح التجارية فى المدينة ، فهاجم أحياء العمال ، وذبح من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، دون تمييز أو رحمة ، فمنهم من أنفذت فى أجسادهم الحراب ، ومنهم من مزقت بالسيوف . وخف الأشراف ورجال الطبقة الوسطى — الدنيا لإنقاذ العامة ، وقضى على الثورة المضادة ، وتولت حكومة الإصلاح مقاليد الأمور ، فوهبت المدينة أشرف نوع من الإدارة يستطيع أهلها أن يتذكروه . ثم ثار التجار الأغنياء مرة أخرى فى عام ١٣٨٥ ، وأسقطوا حكومة **الفقراء** ، وطردوا أربعة آلاف من

العمال العاصين من المدينة . وضعف شأن الصناعة والفن فى سينا من ذلك التاريخ(*) .

وبلغ الفن فى سينا ذروة مجده فى القرن الرابع عشر الملىء بالاضطراب ، فقد قام فيها على الجانب الغربى من الكامپو الفسيح — وهو الميدان الرئيسى فى المدينة — القصر العام ، البلاتسوپبليكو (١٢٨٨ — ١٣٠٩) ، يجاوره برج الأجراس Torre de Magnia الذى يعلو رفيعاً فى الجو إلى ٣٣٤ قدما ، والذى هو أجمل برج فى إيطاليا حتى اليوم . وفى عام ١٣١٠ انتقل لورندسو ميتانى Lorenzo Maitani أعظم المهندسين المعماريين والمثالين فى سينا إلى أرڤينو وخطط الواجهة الفخمة لكنيستها الكبرى ، ثم أخذ هو وغيره من الفنانين من أهل سينا ومعهم أندريا پيزانو يعملون فى شبه حمى جنونية لتزيين المداخل ، والعمد المربوعة ، والقواصر ، حتى أخرجوا معجزة فنية من الرخام ليخلدوا بها ذكرى معجزة بلسينا Bolsena . وأنشئت لقصر سينا العظيم فى عام ١٣٧٧ واجهة مماثلة للواجهة السالفة الذكر على أساس التخطيط الذى تركه چيوڤنى پيزانو ، ولعلهم قد بالغوا فى زخرفته . ولكنه مع هذا لايزال من عجائب الفن فى إيطاليا التى لا تحصى عجائبها الفنية .

وكانت طائفة ممتازة من المصورين فى سينا قد واصلت العمل من النقطة التى وقف عندها دتشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna ؛ ذلك أن سيمون مارتينى قد عهد إليه فى عام ١٣١٥ أن يزين بهو المجلس العظيم فى البلاتسوپبليكو بصورة تمثل تتويج العذراء (المائستا (Maesta) ،

(*) إن ثورة عمال سينا فى عام ١٣٧١ ، وثورة التشيمبى Ciompi فى فلورنس عام ١٣٧٨ ، وثورة وات تيلر Wat Tyler التى قامت معها فى نفس الوقت تقريبا فى إنجلترا ، والثورة التى قامت فى فرنسا حوالى عام ١٣٨٠ توحى كلها بوجود موجة من الثورات اجتاحت أوربا ، كما توحى بوجود قسط من الاتصال والتأثير المتبادل بين الطبقات العامة فى أوربا الغربية أكبر مما يظن الناس عادة أنه كان موجودا فى ذلك الوقت .

وذلك لأن العذراء كانت من الوجهة القانونية كما كانت من الوجهة الدينية ملكة المدينة المتوجة ، وكان من حقها أن ترأس اجتماعات الحكومة البلدية . ولم تكن الصورة تقل روعة عن مثيلتها التى رسمها دتشيو لتوضع فى الكنيسة قبل خمس سنين من ذلك الوقت . نعم إنها لم تضارعها فى حجمها ، أو فيما أثقلت به من الذهب ، وهى شبيهة بأختها « ذات الجلال » تكشف عما استمده فن التصوير فى سينا من فن بيزنطة ، وذلك بما تظهره من جمود وعدم حركة فى الملامح ، ومن وقوف أشخاص الصورة المزدحمين فيها وقفة خالية من الحياة ، ولعلها قد تقدمت على الصورة الأولى فى اللون وفى التصميم . ولكن سيمون ذهب فى عام ١٢٢٦ إلى أسيسى حيث درس مظلمات چيتو ، فلما دعى ليصور فى معبد بالكنيسة السفلى حياة القديس مارتن ، خرج على الوجوه ذات الطابع الراسخ التى مثلها فى صوره السابقة ، وصور وجه أسقف تور تصويرا أبرز فيه نزعة انفرادية ذائعة الصيت . والتقى بپترارك فى أڤنيون ورسم صوراً للشاعر ولورا Laura ، ومجد من أجل ذلك الكندسونيير Canzonlére . ويقول ڤاسارى Vasari إن هذه السطور الموجود « قد أذاعت شهرة سيمون أكثر مما أذاعتها أعماله هو مجتمعة . . . ذلك أن أعماله سيأتى عليها وقت لا يكون لها فيه وجود ، أما ما يكتبه رجل مثل پترارك فسيبقى أبد الدهر » ؛ وذلك تفاؤل لا نجده عند علماء طبقات الأرض أنفسهم . وعين بندكت الثانى عشر سيمون مصوراً رسمياً للبلاط البابوى (١٣٣٩) ؛ وأوضح بحكم منصبه حياة المعمدان فى معبد البابا وحياة العذراء والمنقذ على مدخل الكنيسة . ومات فى أڤنيون عام ١٣٤٤ .

واصل پيترو Pietro وأخوه أمبروجيو Ambrogio ابنا لورندستى Lorenzetti ما حاوله سيمون من إخراج الفن من طابعه الدينى إلى طابعه الدنيوى وتوسع فيه . ولعل پيترو قد هجر التقاليد العاطفية المسرفة التى اتسم بها فن التصوير فى سينا ، وأخرج طائفة من الصور لتزدان بها

محاريب الكنائس ليس لها فيما سبق مثيل فى قوتها ، وليس لها فى بعض الأحيان مثيل فى واقعيتها الوحشية . فقد صور أمبروجيو فى بهو العشرين (**العشرين**) فى البلانسوبيليكو أربعة مظلمات (١٣٣٧ — ١٣٤٣) : **الحكومة الخبيثة** ، وعواقب **الحكومة الخبيثة** ، و**الحكومة الصالحة** ، وعواقب **الحكومة الصالحة** . وقد استبقى فيها الرمزية المضادة فى العصور الوسطى والتى تخلى عنها چيتو ؛ فنرى صوراً فخمة لأشخاص يمثلون سينا ، والعدالة ، والحكمة ، والاتفاق ، والفضائل السبع ، والسلم — وتنحنى الشخصية التى تمثل السلم فى رشاقة كما تنحنى آلهة فدياس . ونشاهد فى صورة **الحكومة الخبيثة** الاستبداد جالساً على العرش ، ووزيره الرعب ؛ ونرى التجار تنهب بضائعهم فى الطريق ، والتحزب والعنف يخضبان المدينة بالدماء ؛ وتظهر صورة **الحكومة الصالحة** المرسومة على جدران هذا البهو نفسه الأهلين السعداء يعملون مغتبطين فى صناعاتهم اليدوية ، وفى مسراتهم وتجارتهم ؛ ونرى الزراع والتجار يقودون إلى المدينة بغالا محملة بالطعام والسلع ، الأطفاله يلعبون ، والفتيات يرقصن ، والآلات الموسيقية تصدر عنها نغمات صامتة ؛ وترفرف فوق المنظر كله روح مجنحة ترمز إلى الأمن . وربما كان هذان الأخوان النشيطان هما اللذين صورا المظلم الضخم الذى يمثل **انتصار الموت** فى الكامبو سانتو Campo Santo (الميدان المقدس) فى پيزا Pisa . وتمثل هذه الصورة جماعة من الصيادين مؤلفة من الأعيان والسيدات يرتدون ثياباً غالية الثمن ، ويعثرون على ثلاثة توابيت تحتوى جثثا متعفنة لملوك . ويمسك أحد الصيادين بأنفه اشمئزازاً من رائحتها . ويحوم ملك الموت فوق هذا المنظر ، وهو يلوح بمنجل ضخم ؛ وفى الهواء ملائكة الرحمة يحرسون الأرواح الناجية فى طريقها إلى الجنة ،

ثم نرى الشياطين المجنحة تجر معظم الموتى إلى الجحيم ، ونرى الأفاعى تطوق أجسام الرجال والنساء العارية والنسور تنهشها . وتلتهمها ، ومن تحتها الملوك ، والملكات ، والأمراء ، والأميرات ، والأساقفة ، والكرادلة يتلوون فى الهاوية التى تضم الملعونين : وقد صور هذان الفنانان نفسيهما على جدار مجاور لهذا فى مظلم آخر ضخم صورة يوم **الحساب** إلى اليسار ومنظراً آخر من مناظر الجحيم إلى اليمين . وتتجسم فى هذين المنظرين جميع الأهوال التى يتصورها أهل العصور الوسطى . فهى شبيهة بمنظر **جحيم** دانتى تُرى رأى العين خالية من الرحمة وذاهبة إلى أبعد حد .

ولم تخرج سينا يوماً من العصور الوسطى : بل بقيت هى وجبيو Gobbio ، وسان جمنيانو San Gimignano ، وصقلية على حالها إلى ما بعد النهضة : لم تمت هذه المدن أبداً ولكنها تتربص وقتها صابرة مستورة حتى تظهر من جديد .

الفصل التاسع

ميـــلان

عاد پترارك إلى أﭬنيون فى عام ١٣٥١ ؛ وأكبر الظن أنه كتب فى ڤوكلوز Vaucluse مقالا لطيفا **فى حياة الوحدة** De vita solitaria يمتدح فيه الوحدة التى يستطيع أن يتخيلها على أنها علاج شاف ولكنه لا يطيقها إذا كانت طعاماً يقيم به الأود . وبعد قليل من عودته إلى أﭬنيون أثار عليه غضب جماعة الأطباء حين حذر البابا كلمنت السادس ، وكان وقتئذ يعانى آلام المرض ، من الأدوية التى يصفها له الأطباء : « لقد كنت على الدوام أرجو أصدقائى وآمر خدمى ، ألا يسمحوا أبداً بأن تجرب أية حيلة من حيل الأطباء هذه فى جسمى ، وأن يفعلوا عكس ما يشير به هؤلاء تماماً »(٤٩) . واستشاط غضبا من إخفاق بعض العلاج فكتب فى عام ١٣٥٥ **تنديدا بطبيب** . ولم يكن أكثر من ذلك ميلا إلى المحامين « الذين يقضون وقتهم كله فى النزاع . . . على أتفه المسائل » : « استمع إلى حكمى على جماعتهم كلها . إن شهرتهم ستفنى بفناء أجسادهم ، وإن قبراً واحداً ليكفى أسماءهم وعظامهم »(٥٠) وأراد البابا إنوسنت السادس أن يجعل أﭬنيون بغيضة أشد البغض لپترارك فاقترح أن يحرمه بحجة أنه متنبئ روحانى ساحر اعتماداً على أن الشاعر دارس لڤرجيل . وخف الكردنال تليران Talleyrand لإنقاذ پترارك ، ولكن نفس الشاعر عافت جو أﭬنيون المعطر بالجهالة القدسية فزار أخاه الراهب جراردو Gherardo وكتب رسالة شيقة **فى فراغ الرهبان** داعب فيها فكرة دخول الدير . ولكنه جاءته دعوة

لأن ينزل ضيفا على طاغية ميلان فى قصره (١٣٥٣) فبادر إلى قبولها مبادرة صدمت مشاعر أصدقائه الجمهوريين .

وكانت الأسرة الحاكمة فى ميلان يطلق عليها اسم الفيكونتى لأن أفرادها كثيراً ما كانوا يشغلون منصب الفيسكوميت vicecomites أى كبار قضاة الأبرشية . وعين الأمبراطور هنرى السابع فى عام ١٣١١ ماتيو فيكونتى قسا له فى ميلان ، وكانت هذه المدينة كما كانت الكثرة الغالبة من مدائن شمالى إيطاليا ، تعترف على نحو ما بأنها جزء من الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأظهر ماتيو فى حكمه من البراعة والحزم ما مكن بنيه من أن يحتفظوا بالسلطة حتى عام ١٤٤٧ وإن كان قد ارتكب هو فى أثناء حكمه أغلاطا شنيعة . وقلما كان خلفاؤه هؤلاء يراعون فى حكمهم ذمة أو ضميراً ، وكثيراً ما كانوا قساة غلاظا ، كما كانوا أحياناً مسرفين ، ولكنهم لم يكونوا أبداً أغبياء . وقد فرضوا الضرائب الفادحة على الشعب ليحصلوا بذلك على الأموال اللازمة لحروبهم الكثيرة التى أخضعت الشمال الغربى من إيطاليا لحكمهم ، ولكن مهارتهم فى اختيار الحكام وقواد الحرب الماهرين أكسبت جيوشهم النصر وعادت بالرخاء على ميلان . وقد أضافوا إلى صناعة الصوف التى اشتهرت بها ميلان صناعة الحرير ، وزادوا من عدد القنوات التى ضاعفت تجارتها ، وأمنوا رعاياهم على أنفسهم وأموالهم إلى حد أنساهم حريتهم ، فأضحت ميلان تحت حكمهم الاستبدادى من أغنى مدائن أوربا ، فكانت قصورها ذات الوجهات الرخامية تطل على الشوارع المرصوفة بالحجارة . ووصلت ميلان بفضل چيوڤنى فيكونتى الوسيم ، المجد ، الذى يستطيع أن يكون قاسيا أو كريما إذا دعته إلى ذلك الحاجة أو طافت به نزوة من النزوات ، إلى ذروة مجدها ، واعترفت لودى Lodi ، وپارما ، وكريما Crema ، وپيا تشندسا ، وبريشيا ، وبرجامو ، ونوڤارا Novara ، وكومو ، وڤرتشلى Vercelli ، وألسندريا Alessandria ، وتورتونا Tortona ، وپنتريمولى Pontremoli ،

وأستيا Astia ، وبولونيا ، اعترفت هذه كلها بحكمه وسلطانه ؛ ولما أن نازعه بابوات أڤنيون دعواه فى تملك بولونيا ، وأصدروا عليه قرار الحرمان ، حارب كلمنت السادس بالشجاعة والرشا ، وظفر ببولونيا ، وبالغفران ، والسلم نظير مائتى ألف فلورين (١٣٥٢) . وأصيب من جراء جرائمه بالنقرس ؛ وزان استبداده بمناصرة الشعر ، والعلم ، والفن ؛ ولما وفد پترارك على بلاطه ، وسأله أى الواجبات يطلب إليه أن يؤديها ، رد عليه چيوڤنى ذلك الرد الجميل : « لا شىء أكثر من وجودك الذى يشرفنى ويشرف حكمى »(٥١) .

وأقام پترارك فى بلاط الڤيكونتى فى پاڤيا أو ميلان ثمانى سنين ، وألف فى أثناء هذا الخضوع المريح سلسلة من القصائد بالشعر الإيطالى الرباعى الأوتاد سماها **الانتصار** أى انتصار الشهوة على الإنسان ، والعفة على الشهوة ، والموت على العفة ، والشهرة على الموت ، والزمان على الشهرة ، والخلود على الزمان . وهنا أنشد آخر أغانيه إلى لورا Laura ، وطلبت أن تغفر له شهوانية حبه ، وتحدث إلى روحها الطاهرة وحلم أنه اجتمع بها فى الجنة — ولعل زوجها قد ذهب إلى مكان آخر . ولا تقل هذه القصائد شأنا عن قصائد دانتى ، وهى تمثل انتصار الغرور على الفن .

وتوفى چيوڤنى ڤيكونتى فى عام ١٣٤٥ وأوصى بملكه إلى ثلاثة من أبناء أخيه ، وكان ماتيو الثانى ، عاجزا منهمكا فى ملذاته ؛ فقتله أخواه ليحتفظا بذلك شرف أسرتهما (١٣٥٥) . وحكم برنابو من ميلان جزءاً من الدوقية ، وحكم جليتسو الثانى Galezzo II من بدوا ما بقى منها . وكان جليتسو هذا حاكما قديرا يرسل شعره الذهبى فى غدائر ، وزوج بناته من أبناء الملوك . ولما أن تزوجت ابنته ڤيولنتى Violante دوق كلارنس Clarence ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، أعطاها بائنة قدرها مائتا ألف فلورين ذهبى (أى خمسة ملايين دولار) ؛ ونفح كل واحد

من حاشية الزوج الإنجليزية المؤلقة من مائتى ألف تابع بهدية ترفع مقامه فى الكرم فوق مقام أغنى معاصريه من الملوك . ويؤكد لنا الرواة أن بقايا مائدة العرس كانت تكفى عشرة آلاف رجل . لقد بلغت إيطاليا فى القرن الرابع عشر هذه الدرجة العليا من الثراء فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تتردى فى هاوية الإفلاس ، وكانت فرنسا تُستنزف دماؤها فى حرب المائة السنين .

obeikandl.com

الفصل العاشر

البندقية وجنوى

بعث الدوق چيوڤنى ڤيكونتى فى عام ١٣٥٤ پترارك إلى البندقية ليفاوضها فى عقد الصلح مع جنوى :

وكتب الشاعر فى ذلك يقول : « إنك لتشهد فى جنوى مدينة حاكمة ، مستقرة على سفح تل أجرد ذات أسوار شاهقة ورجال عظام »(٥٢) . وكان أهلها من أشد الناس حرصا على الكسب يتحدون البحار بإقدامهم وبسالتهم ؛ شقوا لتجارة جنوى طرائق فى البحر المتوسط إلى تونس ، ورودس ، وعكا ، وصور ؛ وإلى ساموس ، ولسبوس ، والقسطنطينية ؛ واخترقوا البحر الأسود إلى بلاد القرم وطربزون ؛ واجتازوا مضيق جبل طارق والمحيط الأطلنطى إلى رون وبروج . وهؤلاء المغامرون من رجال الأعمال هم الذين ابتدعوا قبيل عام ١٣٤٠ طريقة القيد المزدوج (حساب الدوبيا) فى إمساك الدفاتر ، كما ابتدعوا التأمين البحرى على السفن قبيل عام ١٣٧٠(٥٣) . وكانوا يقترضون المال من الأفراد المستثمرين بفائدة تتراوح بين سبعة وعشرة فى المائة ، فى حين أن سعر الفائدة فى معظم المدن الإيطالية كان يتراوح بين اثنى عشرة وثلاثين . وظلت ثمار التجارة ردحا طويلا من الزمن يتقاسمها بغير طريقة حبية عدد قليل من الأسر الغنية — أسرة دوريا Doria ، واسپنولا ، وجريملدى ، والفيسكى Fieschi . وقاد سيمون بكانيرا Simone Boccanera البحارة وغيرهم من العمال فى ثورة موفقة ، وأسس أول أسرة من الأدواج Doge حكموا جنوى حتى عام ١٧٩٧ . وخلد ڤيردى Verdi اسمه فى تمثيلية غنائية . ثم انقسم الغالبون بدورهم إلى عدة جماعات متعادية ونشروا الاضطراب فى

المدينة بمنازعاتهم التى كلفتهم أموالا طائلة ، فى للوقت الذى كانت فيه البندقية منافسة جنوى العظيمة يعمها الثراء والرخاء بفضل ما تستمتع به من النظام والوحدة .

وكانت البندقية أغنى دول إيطاليا وأقواها بعد ميلان ، وكانت حكومتها أقدر الحكومات وأكثرها حزماً بلا استثناء . واشتهر صناعها اليدويون بجمال مصنوعاتهم ، وكانت كثرتها خاصة بتجارة مواد الترف . وكانت دار صنعتها البحرية تضم ١٦,٠٠٠ رجل ، و٣٦,٠٠٠ بحار يسيرون ٣٣٠٠ سفينة حربية وتجارية . وكان الذين يسيرون سفائنها بالمجاذيف رجالا من الأحرار لا من العبيد كما جرت بذلك العادة فى القرن السادس عشر . وكان تجار البندقية يغزون جميع الأسواق من بيت المقدس إلى أنتويرب ، ويتجرون مع المسيحيين والمسلمين على السواء ، لايميزون بين أولئك وهؤلاء ، وجروا على أنفسهم اللعنات البابوية التى كانت تتساقط عليهم كما يتساقط الظل على الأرض.. وكان پترارك الذى جاب الآفاق من نابلى إلى فلاندرز ليشبع « حبه وتحمسه لرؤية كثير من الأشياء » يعجب أشد العجب من كثرة ما يرى من السفن فى أمواه البندقية .

« أرى سفناً . . . لاتقل حجماً عن قصرى ، وساريتها أعلى من ستة أبراج ، كأنها جبال تسبح فوق الماء ، تخرج لتواجه ما لا يحصى من الأخطار فى كل صقع من أصقاع العالم ، تحمل النبيذ إلى إنجلترا ، والشهد إلى روسيا ، والزعفران والزيت ونسيج الكتان إلى أشور ، وأرمينية . والعبيد الفرس والعرب ، والخشب إلى مصر وبلاد اليونان ، ثم تعود مثقلة بالحاصلات على اختلاف أنواعها فترسلها إلى جميع أنحاء العالم (٥٤) » .

وكانت هذه التجارة العظيمة الواسعة تعتمد على الأموال الخاصة يجمعها ويستثمرها المرابون الذين أطلق عليهم فى القرن الرابع عشر لقب المصرفيين » Bancherii ؛ وهذا الاسم الإيطالى مشتق من لفظ Banco أى المقعد الذى

كانوا يجلسون عليه أمام نضدهم لمبادلة النقود . وكانت أهم وحدات النقد هى الليرا (واسمها مختصر من ليرا ، أى رطل) والدوقات (من دوقا ، أى دون أودوچ) ، والثانية قطعة من النقد الذهبى زنتها ٣٥٦٠ جراماً(*) وكانت هذه القطعة النقدية هى والفلورين والفلورنسى أكثر أنواع العملة ثباتاً وأعظمها تقديراً فى العالم المسيحى(**).

وكانت الحياة هنا تكاد تبلغ من المرح ما بلغته مدينة ناپلى فى عهد بوكاتشيو . فكان البنادقة يحتفلون بأعيادهم وأيام نصرهم احتفالات فخمة ، ويصنعون ويلونون سفنهم الخاصة بالنزهة وسفنهم الحربية ، ويرتدون الحرائر الشرقية ، وتتلألأ على موائدهم آنية الزجاج البندقية ، وتعزف لهم الموسيقى فى البيوت وعلى صفحة الماء .

ورأس الدوچ لورندسو تشيلسى Lorenzo Celsi يصاحبه پترارك مباراة بين أمهر الموسيقيين فى إيطاليا ؛ وأنشدت الأغانى على نغمات مختلف الآلات الموسيقية ، وغنت فرق المغنين ، وكانت الجائزة الأولى من نصيب فرانتشيسكو لنديني Francesco Londini الفلورنسى وهو مؤلف ضرير للقصص الشعرية والقصائد الغزلية . وكان لورندســو ڤينيديسيانو Lorenzo Veneziano وغيره ينتقلون وقتئذ بالمظلمات من صرامة العصور الوسطى إلى رشاقة النهضة ويبشرون ببهاء فن التصوير البندقى وزهاء ألوانه .

(*) هذا ما يقوله المؤلف . على أن معجم ويستر (المطبوع فى عام ١٩٥٤) يقول إن قيمة الدوقة الإيطالية تبلغ هى ٢٫٢٥ دولار أمريكى . (المترجم)

(**) وستقدر هذه القطع الثلاث جميعها فى هذا المجلد تقديرا غير دقيق قبل عام ١٤٩٠ بالقوة الشرائية المعادلة لخمسة وعشرين دولارا من عملة الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٢ . أما فيما بعد ١٤٩٠ فستقدر بالقوة الشرائية لاثنى عشر دولارا ونصف دولار . وقد حدث تضخم بطىء أنقص قيمة العملة الإيطالية بين عامى ١٤٠٠٠ و١٥٨٠٠ إلى ما يقرب من نصف قيمتها.

فكانت البيوت ، والقصور ، والكنائس ترتفع فوق البحر كالمرجان . ولم يكن فى البندقية قصور كالقلاع أو مساكن محصنة ، أو أسوار ضخمة منيعة ، لأن خصام الأفراد فيها سرعان ما كان يخضع لسلطان القانون ؛ هذا إلى أنه يكاد يكون لكل بيت خندق من صنع الطبيعة . وظل التخطيط المعمارى قوطياً كما كان ، ولكنه كان يحوى من الرشاقة والخفة ما لا تجرؤ العمارة القوطية الشمالية أن تكونه . وشيدت فى ذلك العهد الكنيسة الفخمة التى تحمل اسم القديسة ماريا جلوريوزا دى فرارى Santa Maria gloriza dei Frari ؛ وظلت كنيسة القديس مرقس بين الفينة والفينة ترفع وجهها القديم مزداناً بالجديد من التماثيل ، والفسيفساء ، والنقوش العربية ، وتعلوها أقواس قوطية فوق عقود مستديرة من الطراز البيزنطى القديم . ولا يكاد يترارك يصدق أن ميدان القديس مرقس Piazza San Marco « كان له مثيل فى أية بقعة من بقاع العالم(٥٥) » وإن لم يكن قد أحيط فى ذلك الوقت بكل ما أحيط به من العمائر الفخمة .

ووجهت فى عام ١٣٧٨ ضربة مهلكة إلى هذا الجمال كله الذى كان ظله يتماوج منعكساً على مياه القناة العظمى ، وهذا الصرح الموحد من نظامى الحكم والاقتصاد الذى كان يسيطر على إمبراطورية تشمل البحر الأدرياوى وبحر إيجه ، وهو نفسه قائم فى بقعة مائية صغيرة على سطح الأرض ، وذلك حين بلغ النزاع القديم أوجه بين البندقة وجنوى . وسار لوتشيانو دوريا Luciano Doria على رأس أسطول حربى من جنوى إلى پولا Pola ، ووجد الأسطول البندقى قد أضعفه وباء تفشى بين بحارته ، وأوقع به هزيمة ساحقة استولى فيها على خمس عشرة من سفنه . وأسر نحو ألفين من رجاله . وقتل لوتشيانو فى المعركة ، ولكن أخاه أمير رجيو خلفه فى إمارة الأسطول ، واستولى على بلدة كيوجيا Chiogia — الواقعة على رأس ضيق فى البحر

على بعد خمسة عشر ميلا أو نحوها جنوب البندقية نفسها . ثم عقد حلفاً مع پدوا وسد الطريق على جميع سفن البندقية ، واستعد لغزو المدينة نفسها ببحارة من چنوى وجنود مرتزقة من پدوا . وظنت المدينة المزهوة بنفسها أنها عاجزة عن الدفاع فطلبت الصلح ، ولكن الشروط التى فرضها المنتصرون كانت من الوقاحة والشدة بحيث رفضها المجلس الكبير ، وصمم على الدفاع عن كل شبر من المياه الضحلة المتصلة بالبحر . وأخرج الأغنياء ما كانوا يخبئونه من المال وصبوه صبا فى خزائن الدولة ، وأخذ الأهلون يكدون ليلا ونهاراً لبناء أسطول جديد ، وأنشئت قلاع سابحة حول الجزائر ، وجهزت بالمدافع التى ظهرت وقتئذ لأول مرة فى إيطاليا (١٣٧٩) . ولكن أهل چنوى وپدوا كانوا قد حاصروا البندقية من ناحية البحر ثم مدوا حصاراً آخر من الجند على مداخلها البرية وقطعوا الطعام عن المدينة . وبينا كان بعض أهلها يموتون جوعاً كان ڤيتورى پيزانى **Vittore Pisani** يدرب المجندين للأسطول الجديد ، حتى إذا كان شهر ديسمبر من عام ١٣٧٩ قاد پيزانى والدوج أندريا كنتارينى **Andrea Contarini** هذا الأسطول المجدد — وكان مؤلفاً من أربع وثلاثين سفينة واطئة ذات سطح واحد ، وستين مركباً كبيراً ، وأربعمائة قارب صغير — ليحاصر به الغزاة الچنويين وسفائنهم عند كيوچيا . وكان أسطول چنوى أصغر من أن يواجه أسطول البندقية الجديد ، وكانت مدافع البنادقة تصب على مراكب چنوى ومعاقل جنودها ومعسكراتهم حجارة زنة الواحد منها مائة وخمسون رطلا ، وقتلت فيمن قتلت وهم كثيرون أمير البحر پيترو دوريا . ولم يجد الغزاة من أهل چنوى حاجتهم من الطعام ، فطلبوا أن يؤذن لهم أن يخرجوا النساء والأطفال من كيوجيا ؛ وأجابهم البنادقة إلى ما طلبوا ؛ ولما أن طلب الچنويون أن يخضعوا إذا سمح لأسطولهم أن يعود إلى بلدهم ، جاء دور

البنادقة فطلبوا التسليم بلا شرط . ودام حصار البنادقة لكيوجيا ستة أشهر حتى فت الموت والمرض فى عضد الجنويين فاستسلموا ، وعاملتهم البندقية معاملة كريمة رحيمة ، ولما أن عرض أمديوس السادس Amadeus VI كونت ساڤوى أن يتوسط لحسم النزاع وافق الطرفان المنهوكا القوى ، ونزل كلاهما عن بعض مطالبه ، وتبادلا الأسرى ، وجنحا إلى السلم (١٣٨١) .

الفصل الحادى عشر

خاتمة القرن الرابع عشر

خبر پترارك كل مدينة وكل مضيف ، ثم اتخذ مقامه فى البندقية عام ١٣٦١ ، وعاش فيها سبع سنين ، وجاء معه بمكتبته ، وكادت تحتوى كل الآداب اللاتينية القديمة ما عدا كتب لكريشيوس . وأوصى فى رسالة بليغة بمجموعته القيمة إلى البندقية ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق استعماله حتى مماته وأرادت حكومة البندقية أن تظهر تقديرها لعمله ، فوهبته قصر مولينا Palazzo Molina وأثثته له بأثاث مريح ؛ ولكن پترارك حمل كتبه معه فى آخر أسفاره ، ووقعت عند وفاته فى يد آخر مضيفيه فرانتشسكو الأول صاحب كرارا Carrara وكان من أعداء البندقية ؛ واحتفظ ببعض هذه الكتب فى پدوا ، وبيع بعضها الآخر ، ثم تشتت بغير هذه وتلك من الوسائل .

وأكبر الظن أنه كتب فى البندقية مقالا **فى واجبات الإمبراطور وفضائله** وسلسلة طويلة من الحوار عن **علاج [الحظ] الحسن والسيئ** . وينصح فى هذا الكتاب الأخير بالتواضع وقت الرخاء ، والشجاعة وقت المحنة ، ويحذر الإنسان من أن يربط سعادته بانتصاره على ظهر الأرض أو بالحصول عن طيباتها ، ويعلم الإنسان كيف يصبر على آلام الأسنان ، والبدانة ، وفقد الزوجة ، وتقلبات السمعة ؛ وهذه كلها نصائح سديدة ، ولكنها كلها موجودة فى أقوال سنكا . كذلك ألف فى هذا الوقت عينه أعظم كتبه النثرية وهو كتاب « **الرجال النابهون** De vfris illustribus » وهو يضم سيرة واحد وثلاثين من عظماء الرومان من رميولوس إلى قيصر ،

وقد خص قيصر بثلثمائة وخمسين صفحة من قطع الثمن ظلت حتى القرن التاسع عشر أكمل سيرة لهذا الحاكم .

وغادر پترارك البندقية إلى پاڤيا فى عام ١٣٦٨ يرجو أن يتوسط فى الصلح بين جليتسو الثانى ڤيكونتى والبابا إربان الخامس ، وكان كل ما وجده أن البلاغة إذا لم تصحبها المدافع لا تجد من السياسيين إلا آذاناً صماء . وفى عام ١٣٧٠ قبل دعوة فرانتشسكو الأول صاحب كرارا لينزل ضيفاً عليه مرة أخرى فى بلاطه الملكى فى پدوا . لكن أعصابه التى أوهنتها الشيخوخة عافت صخب المدينة وزحامها ، وما لبث أن آوى إلى بيت ريفى متواضع فى أركوا Arqua بين التلال الأوجانية Euganean فى الجنوب الغربى من پدوا وعلى مسيرة اثنى عشر ميلا منها ، وقضى فى هذا البيت الأربع السنين الباقية من حياته ، جمع فيها رسائله وأعدها لتنشر بعد وفاته ، وكتب لنفسه ترجمة صغيرة فاتنة سماها **رسالة للمستقبل** Epistola ad Posteros (١٣٧١) . ثم استسلم مرة أخرى لضعف الفلاسفة القديم ، فأخذ يسدى النصح إلى الحكام فى كيفية تصريف شئون الدول ؛ وكتب إلى أمير پدوا فى رسالته التى أسماها **خير الوسائل لإدارة شئون الدولة** (١٣٧٢) يقول « لا تكن سيد رعاياك بل أباهم ، وأحبهم كما تحب أبناءك » ؛ ونصحه بأن يجفف المناقع ، ويضمن لرعاياه الطعام ، ويحافظ على الكنائس ، ويعين المرضى والمحتاجين ، ويبسط حمايته ورعايته على رجال الأدب — الذين تعتمد على أقلامهم كل أسباب السمعة الطيبة ، ثم عمد إلى كتاب **ديكمرون** فترجم قصة جريزلدا إلى اللغة اللاتينية لكى تكون فى متناول القراء فى أوربا .

وكان بوكاتشيو وقتئذ فى حالة نفسية تجعله يندم على كتابة ديكمرون أو القصائد الشهوانية التى قالها فى أيام شبابه . وكان أحد الرهبان قد بعث وهو يحتضر إلى بوكاتشيو رسالة يؤنبه فيها على حياته الآثمة وعلى

قصصه المرحة ، وينذره ، إذا لم يعجل بالتوبة ويصلح حاله ، بالموت العاجل والعذاب المقيم فى نار جهنم . ولم يكن بوكاتشيو فى وقت من الأوقات يصبر على التفكير الطويل ، وكان يقبل أوهام زمانه وما يؤمن به أهله من معرفة الطالع والتنبؤ بالمستقبل عن طريق الأحلام ، ويؤمن بوجود آلاف الشياطين ، ويعتقد أن إينياس Aeneas قد زار الجحيم بحق(٥٦) .

وأخذ يجمع بتحريض پترارك المخطوطات القديمة ؛ وأنقذ من النسيان الكتب من ١١ إلى ١٦ من **الحوليات** والكتب من ١ إلى ٥ من **التواريخ** لتاستس وكانت وقتئذ فى مكتبة مونتى كاتشينو ؛ وأعاد نصوص ماريتالى وأوسنيوس ، وحاول أن يقدم هوميروس إلى العالم الغربى . وكان بعض العلماء فى أثناء عصر الإيمان قد ظلوا على علم باللغة اليونانية ، أما فى أيام بوكاتشيو فقد كادت هذه اللغة تختفى اختفاء تاما من غربى أوربا ما عدا جنوبى إيطاليا الذى كان وقتئذ نصف يونانى . ثم شرع پترارك فى عام ١٣٤٢ يدرس اللغة اليونانية على راهب من كالابريا Calabria يدعى بارلام Barlaam . ولما خلت إحدى أسقفيات كالابريا من راعيها أوصى پترارك بأن يختار لها بارلام ، وأخذ بوصيته ؛ فلما سافر الراهب إلى مقر عمله انقطع پترارك عن دراسة اللغة اليونانية لأنه لم يجد لها مدرسا ، أو كتاباً فى النحو ، أو معجما ؛ ذلك بأن هذه الكتب لم يكن لها وجود باللغة اللاتينية أو الإيطالية . ثم التقى بوكاتشيو فى عام ١٣٥٩ بتلميذ لبارلام فى ميلان يدعى ليون پيلاتس Leon Pilatus ، فدعاه للمجىء إلى فلورنس ، وأقنع جامعتها — وكانت قد أسست قبل أحد عشر عاما من ذلك الوقت ، بأن تنشئ فيها لپيلاتس كرسيا للغة اليونانية . وتبرع پترارك بجزء من مرتب الأستاذ ؛ وبعث بنسخ من الإلياذة والأوديسية إلى بوكاتشيو ، وكلف پيلاتس بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وتعطل العمل مرة بعد مرة وورط پترارك فى مراسلات متعبة ؛ وكان يشكو من أن رسائل پيلاتس أطول وأجف من ذقنه نفسها على طولها وجفافها(٥٧) ، ولم يتحرك پيلاتس لإنجاز العمل

إلا بمساعى بوكاتشيو . وكانت هذه الترجمة النثرية الخالية من الدقة هى الترجمة اللاتينية الوحيدة التى تعرفها أوربا لملحمتى هوميروس فى القرن الرابع عشر .

وكان پيلاتس فى خلال هذا الوقت قد علم بوكاتشيو من اللغة اليونانية ما يكفيه لقراءة الآداب اليونانية القديمة قراءة عاجزة . وكان بوكاتشيو نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يقرأ النص إلا قراءة ضعيفة ؛ ولكنه وصف ما قرأه بأنه يبلغ من الجمال حدا لا يستطيع وصفه . وألهمته هذه الكتب كما ألهمه پترارك نفسه ، فخصص ما بقى من جهوده الأدبية كلها تقريبا لأن يعرف أوربا اللاتينية بأدب اليونان ، وأساطيرهم ، وتاريخهم .

فنشر سلسلة من التراجم القصيرة سماها **فى حظوظ مشهورى الرجال** من آدم إلى چون ملك فرنسا ، وروى **فى النساء النابهات** قصص شهيرات النساء من حواء إلى چوانا الأولى Joanna I ملكة نابلى ، وفى كتاب **الجبال والغابات والعيون** ، إلخ ثبتا مرتبا حسب الحروف الهجائية بأسماء الجبال ، والغابات ، والعيون ، والأنهار ، والبحيرات التى ورد ذكرها فى الأدب اليونانى ، ثم وضع كتيبا فى الأساطير اليونانية سماه **فى تسلسل الأنساب** . وقد بلغ من انهماكه فى موضوعه أن كان يسمى إله المسيحيين چوف ، والشيطان پلوتو ، ويتحدث عن الزهرة (ڤينوس) والمريخ كأنهما شخصان حقيقيان كمريم والمسيح . وتبدو هذه الكتب فى هذه الأيام مملة ثقيلة لا تطاق ، كتبت بلغة لاتينية رديئة وليس فيها كثير من العلم ، ولكنها كانت فى زمانها كتبا دراسية قيمة لطلاب اللغة اليونانية ، وكان لها شأن أيما شأن فى تهيئة أسباب النهضة .

وهكذا خرج بوكاتشيو من نزق الشباب إلى وقار الشيوخ ، واستخدمته البندقية بين الفينة والفينة فى بعض شئونها الدبلوماسية ، فأرسلته فى مهمات

سياسية إلى فورلى Forli ، وأڤنيون ، وراڤنا . والبندقية . وضعف جسمه حين بلغ سن الستين وأصيب بالقوباء الجافة و « أمراض لا أعرف كيف أحصيها » (٥٨) . وعاش فى تشرتلدو Certaldo إحدى أرباض فلورنس عيشة ضنكا يشكو آلام المفاقة . ولعل رغبة بعض أصدقاء بوكاتشيو فى أن يقدموا له بعض المعونة المالية هى التى حدت بهم إلى أن يقنعوا أمير فلورنس بأن ينشئ فى عام ١٣٧٣ كرسيا لدراسة دانتى ، وأن يوظف لبوكاتشيو مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار) ليلقى سلسلة من المحاضرات عن دانتى فى الباديا Badia . لكن صحته وهنت قبل أن يتم المنهج المقرر ، فعاد إلى تشرتلدو وقد وطن نفسه على ملاقاة الموت

وكان پترارك قد كتب عن نفسه يقول : « أحب أن يجدنى الموت مستعدا للقائه أكتب أو ، إذا شاء المسيح ، أصلى وأبكى » (٥٩) . وقد أجاب الله دعاءه فوجد فى يوم عيد ميلاده المتمم للسبعين وهو اليوم العشرون من شهر يولية عام ١٣٧٤ مكبا بوجهه على كتاب يبدو كأنه نائم ولكنه فى الحقيقة ميت . وقد ترك فى وصيته خمسين فلورينا يشترى بها رداء لبوكاتشيو يتقى به البرد فى ليالى الشتاء الطويلة . ومات بوكاتشيو أيضاً فى اليوم الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٣٧٥ وهو فى الحادية والستين من عمره . وأقفرت إيطاليا بعد وفاته من كبار الأدباء حتى نبتت البذور التى زرعوها وأينعت وآتت أكلها .

(الخريطة رقم ٣)

obeikandl.com

الفصل الثانى عشر

نظرة عامة

تتبعنا تنقل پترارك وبوكاتشيو فى أنحاء إيطاليا ، لكن إيطاليا من الوجهة السياسية لم يكن لها وجود ، بل الذى كان موجوداً هو دول — المدن ، وهى قطع ممزقة حرة فى أن تهلك نفسها فى الأحقاد والحروب ؛ فقد دمرت پيزا منافستها التجارية أملفى ، ودمرت ميلان پياتشنوسا ؛ ودمرت جنوى وفلورنس پيزا ، ودمرت البندقية جنوى ، وانضمت بعد هذا العهد نصف أوربا إلى الجزء الأكبر من إيطاليا لتدمر البندقية . وأدى انهيار الحكومة المركزية على أثر غزوات البرابرة ، و « الحروب القوطية » التى ثار عجاجها فى القرن السادس ، وانقسام شبه الجزيرة بين لمبارديا وبيزنطية ، وتهدم الطرق التجارية الرومانية ، والنزاع بين اللمبارد والبابوات ، وبين البابوات والإمبراطورية ، وخوف البابا أنه إذا قامت سلطة عليا فى إيطاليا تمتد من الألب إلى صقلية ، فإن قيامها يجعل البابا أسيراً ويخضع رئيس أوربا الروحى إلى رئيس الدولة السياسى ، كل هذا فكك وحدة إيطاليا ومزقها كل ممزق . ولم يقتصر أشياع البابوات وأشياع الأباطرة على تقسيم إيطاليا شيعاً ، بل قسموا فضلا عن ذلك كل مدينة تقريباً إلى جلف وجبلين Guelf & Ghibelline ؛ ولما أن خبت نار النزاع بين الطائفتين استخدم الشعارين القديمين منافسون جدد ، وظلت نيران الأحقاد مشتعلة فى جميع مناحى الحياة ، فكان إذا وضع الجبلين الريش فى ناحية من قبعاتهم وضعها الجلف فى الناحية الأخرى ؛ وإذا قطع الجبلين الفاكهة بالعرض قطعها الجلف بالطول ، وإذا اتخذ الجبلين وردة بيضاء شارة لهم اتخذ الجلف شارة حمراء . وانتزع الجبلين فى ميلان تمثالا للمسيح

من محراب فى كنيسة وأحرقوه لأن وجهه كان متجهاً إلى ما ظنوه ناحية الخلف ، وفى برجامو الجبلينية اغتال مضيفون بعض ضيوفهم من الكلبريين لأنهم تبينوا من أسلوب أكلهم الثوم أنهم من الخلف(٦٠) . وبعث ضعف الأفراد وخور عزيمتهم ، واضطراب الأمن بين الجماعات ، وخداع الغرور ، بعث هذا فى النفوس دوام الخوف ، والارتياب ، والكراهية ، واحتقار المخالفين ، والأجانب ، والأغراب .

ونشأت دولة — المدينة الإيطالية من هذه العقبات القائمة فى سبيل الوحدة فلم يكن الناس يفكرون إلا فى مدينتهم ، ولم يكن أحد يفكر فى إيطاليا بوصفها وحدة وكُلاً إلا قليل من الفلاسفة أمثال مكيفلى **Machiavelli** أو شاعر مثل پترارك ، وكان تشليني فى القرن السادس عشر نفسه يشير إلى أهل فلورنس بقوله إنهم « رجال من أمتنا » وإلى فلورنس بأنها : « وطنى » . وكان پترارك ، الذى تحرر بفضل إقامته بالبلدان الأجنبية من الوطنية المحلية الضيقة يأسف لهذه الحروب التافهة ، والانقسام المتفشى فى بلده ، وتوسل فى أنشودة بليغة عنوانها : **بلادى إيطاليا** إلى أمراء إيطاليا أن يهبوها السلم والوحدة :

أى بلادى إيطاليا ! — وإن كانت الألفاظ لا تجدى
فى اندمال الجروح المتنسرة
التى لايحصى عديدها ، والتى تمزق صدرى ،
بيد أنه قد يخفف من آلامي
أن أتغنى بأحزان التيبر
وبالمظالم التى حلت بالآرنو حين أطوف وأنوح
بشواطى البو المحزنة أترنم فيها بقصائدى ...
ويلاه ! أليست هذه هى الأرض التى وطئتها قدمى أول ما وطئت ؟
أليس هذا هو المكان الذى دُلِّلت فيه برفق

وأنا مستريح فى المهد ، وربيت به فى عز وحنان ؟
ويلاه ! أليست هذه بلادى — التى أعزها
لما بينى وبينها من روابط البنوة ؟
والتى يثوى فى ثراها أبواى ؟
فهلا بعثت هذه الفكرة الحنونة
بعض الأسى فى قلوبكم القاسية
فنظرتم إلى أحزان الشعب ،
الذى يرجو منكم ، بعد الله ، أن تنقذوه ؟
فإذا ما عطفتم وأذعنتم ،
فإن الفضيلة سترفع رأسها عالية ،
وتتأهب للحرب العوان
ضد قوى الغضب العمياء
ولن يطول الزمن الذى تحترب فيه القوتان غير المتكافئتين
لا ! لا ! إن اللهب القديم
الذى رفع اسم إيطاليا إلى السماكين لم ينطفئ بعد

وكان پترارك يحلم أن يستطيع ريندسو Rienzo توحيد إيطاليا ، فلما أن خاب أمله فيه اتجه كما اتجه دانتى إلى عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان هذا العاهل من الوجهة النظرية الوارث من غير رجال الدين لجميع السلطات الزمنية التى كانت للإمبراطورية الرومانية الوثنية فى بلاد الغرب . ومن أجل هذا فإنه لم يمض إلا قليل من الوقت على انسحاب ريندسو من ميدان العمل (١٣٤٧) حتى وجه پترارك رسالة شهيرة إلى شارل السادس ملك بوهيميا ، الذى كان بوصفه « ملك الرومان » الوارث لعرش الإمبراطورية . وقال الشاعر فى هذه الرسالة : « فليأت الملك إلى رومة ليتوج فيها إمبراطوراً ، وليتخذ رومة لا پراج عاصمة

لملكه ، وليرجع إلى إيطاليا « حديقة الإمبراطورية » الوحدة ، والنظام ، والسلم[٦١] ؛ ولما اجتاز شارل جبال الألب فى عام ١٣٥٤ دعا پترارك لمقابلته فى مانتوا Mantua واستمع فى رقة وبشاشة إلى ما وجهه إليه من دعوات تردد أصداء نداء دانتى الحار إلى جده هنرى السابع ؛ ولكن شارل لم يكن لديه من القوة ما يكفى لهزيمة جميع طغـــاة لمبارديا ، وجميع أهل فلورنس والبندقية ؛ فأسرع إلى رومة ، ولم يكن البابا فيها وقتئذ ، فعمل على أن يتوجه نائبه ، ثم قفل راجعاً إلى بوهيميا ، وجد فى بيع المناصب الدينية وهو عائد إلى بلاده ؛ وسافر إليه پترارك فى پراج بعد عامين من ذلك الحادث ، فى سفارة من ميلان ، ولكن هذا اللقاء لم تجن منه إيطاليا ثمرة تستحق الذكر .

ولعل نهضة ما لم تكن قد وجدت إذا ما تحقق أمل پترارك . ذلك أن تقطيع أوصال إيطاليا كان مما ساعد على قيام النهضة ، فالدول الواسعة الرقعة توطد النظام وتدعم السلطان أكثر ممـــا تنشر لواء الحرية وترعى الفنون . أضف إلى هذا أن التنافس التجارى بين المدن الإيطالية كان هو الذى بدأ وأتم عمل الحروب الصليبية فى تنمية اقتصاد إيطاليا وثروتها . ولسنا ننكر أن تعدد المراكز السياسية قد ضاعف من عدد المنازعات بين المدن ، ولكن هذه المنازعات الصغرى فى مجموعها لم تسبب من هلاك فى الأنفس وخراب فى البلاد قدر ما سببته حروب مائة السنين فى فرنسا ، ولسنا ننكر كذلك أن استقلال المدن قد أضعف من قدرة إيطاليا على صد غارات الأجانب عليها ، ولكنه ولد منافسة نبيلة بين المدن والأمراء لرعاية الثقافة ، والحرص على التفوق فى فنون العمارة ، والنحت ، والتصوير ، والتعليم ، والمنح التعليمية ، والشعر . لقد كان فى إيطالية النهضة ، كما كان فى ألمانيا القوطية ، مراكز كثيرة مثل باريس .

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة لكى نقدر ما كان لپترارك وبوكاتشيو من

فصل فى التمهيد إلى النهضة : لقد كان كلاهما لايزال أسيراً لأفكار العصور الوسطى . وكان القصّاص العظيم فى عنفوان شبابه يسخر من فساد أخلاق رجال الدين واتجارهم بمخلفات القديسين ، ولكن آلاف الآلاف من رجال العصور الوسطى ونسائها كانوا يفعلون فعله ، وقد أصبح أكثر استمساكاً بالدين واصطباغاً بصبغة العصور الوسطى فى الأيام التى أخذ يدرس فيها اللغة اليونانية . وكان پترارك يصف نفسه بحق بأنه واقف بين عهدين(٦٢) ، وكأنه بهذا كان يتنبأ بما سوف يكون . فقد كان يقبل قواعد الكنيسة التحكمية فى الوقت الذى كان يشن فيه حرباً شعواء على أخلاق بابوات أڤنيون ، وكان يحب الآداب القديمة فى أواخر عصر الإيمان ، كما كان چيروم Jerome يحبها فى بدايته ، وكان فى قرارة نفسه غير راض عن هذا الحب . وكتب فى العصور الوسطى مقالات ممتازة فى احتقار العالم الدنيوى وفى السلم المقدسة التى تنبعث من الحياة الدينية . لكنه رغم هذا كان أكثر وفاء للآداب القديمة منه للورا Laura ، وكان يبحث عن المخطوطات القديمة ويعتز بها ، ويلهم غيره بأن يحذو فى ذلك حذوه ، وقد بز جميع المؤلفين فى العصور الوسطى تقريباً عدا أوغسطين فى العمل على عدم انقطاع الصلة بالأدب اللاتينى ، وصاغ عباراته وأسلوبه على مثال ڤرچيل وشيشرون ، وكان يفكر فى ذيوع شهرته أكثر مما يفكر فى خلود نفسه . وقد أثمرت قصائده مائة عام من الأغانى المصطنعة المتكلفة فى إيطاليا ، ولكنها أعانت على تشكيل أغانى شيكسبير . وانتقلت روحه الحماسية من بعده إلى پيكو Pico كما انتقل أسلوبه المصقول إلى پولتيان ، وكانت رسائله ومقالاته بمثابة قنطرة من الدماثة والرشاقة بين سنكا ومنتانى ، واكتمل توفيقه بين العهود القديمة والمسيحية فى البابا نقولاس الخامس والبابا ليو العاشر . وملاك القول أنه كان بحق أبا النهضة فى تلك الأيام .

لكننا نقول مرة أخرى : إن من الخطأ أن نبالغ فى حظ الآقدمين من هذا المجد الذى بلغته إيطاليا ، ذلك أنه كان تتمة لا انقلاباً ، وكان لنضوج العصور الوسطى فى هذه التتمة شأن أعظم من الكشف الثانى للمخطوطات القديمة والفن القديم . وكان كثير من علماء العصور الوسطى يعرفون الآداب الوثنية ويحبونها ، وكان الرهبان هم الذين حافظوا عليها ، ورجال الدين هم الذين ترجموها ونشروها ، وكانت الجامعات الكبرى هى التى أخذت منذ عام ١١٠٠ تنقل إلى شباب أوربا قدراً من التراث العقلى والأدبى للجنس البشرى . وكانت نشأة الفلسفة الانتقادية عند إرچينا Erigena وأبلار ، وإدخال دراسة أرسطو وابن رشد فى مناهج الجامعات ودعوة أكوناس الجريئة إلى إثبات كل العقائد المسيحية تقريباً على أساس العقل ، وما تلاها بعد قليل من اعتراف دنزاسكوتس Duns Scotus بأن الكثرة الغالبة من هذه العقائد خارجة عن نطاق العقل ، كان هذا كله سبباً فى نشأة صرح الفلسفة المدرسية العقلى ثم تحطيمه بعدئذ ، وفى ترك المسيحيين المتعلمين أحراراً يحاولون التأليف من جديد بين الفلسفة الوثنية ولاهوت العصور الوسطى من جهة ؛ وتجارب الحياة من جهة أخرى . وكان تحرر المدن من عوائق الإقطاع ، واتساع نطاق التجارة ، وانتشار الاقتصاد القائم على النقود ، — كانت كل هذه قد سبقت مولد پترارك . وعلم روچر ملك صقلية ؛ وفردريك الثانى ؛ دع عنك خلفاء المسلمين وسلاطينهم ، علم هؤلاء كلهم حكام البلاد أن يضيفوا سنا المجد إلى السلطان بمناصرة الفن ، والشعر ، والعلوم ، والفلسفة . وقد احتفظ رجال العصور الوسطى ونساؤها ، رغم قلة منهم كانت منهمكة فى شئون الدار الآخرة ، دون حياء بما طبع عليه الإنسان من سرور بملاذ الحياة الحسية البسيطة ، وكان للرجال الذين صوروا ، وشادوا ، ونحتوا تماثيل الكنائس الكبرى

إدراكهم الخاص للجمال ، فسموا بالتفكير وبالشكل سمواً لم نر له نظيراً قط .

لهذا نقول دون أن نخشى الزلل إن جميع قواعد النهضة قد وضعت قبل أن يموت پترارك . وكان النماء العجيب فى تجارة إيطاليا وصناعتها واستثمارهما بجانب كبير من نشاط أهلها ، قد كدسا الثروة التى أمدت الحركة بالمال ، كما كان الانتقال من سلم الريف وركوده إلى حيوية المدن ونشاطها سبباً فى خلق المزاج الذى غذى هذه الحركة . أما الأساس السياسى فقد قام على حرية المدن وتنافسها ، والقضاء على الأرستقراطية المتعطلة ، وقيام الأمراء المتعلمين ، والطبقة الوسطى القوية . وأما الأساس الأدبى فقد مهد له تحسن اللغات القومية ، والتحمس إلى الكشف عن الآداب اليونانية والرومانية القديمة ودراستها . وكان الأساس الأخلاقى قد وضع هو الآخر : فقد أخذ ازدياد الثروة يحطم القيود الأخلاقية القديمة ، وشجع الاتصال بالبلاد الإسلامية عن طريق التجارة والحروب الصليبية نزعة التسامح فى الانحراف بالقواعد الدينية والأخلاقية عن المعتقدات والأساليب التقليدية . وكان لإعادة الكشف عن العالم الوثنى ذى الحرية النسبية فى التفكير والسلوك نصيب فى تحطيم عقائد العصور الوسطى ومبادئها الأخلاقية ؛ ولهذا كله تقهقر الاهتمام بالحياة الآخرة أمام المشاغل الزمنية ، البشرية ، الدنيوية . ونما الإحساس بالجمال نماء مطرداً ، فقد خلفت ترانيم العصور الوسطى ، والقصص الغرامية المتتالية ، وأناشيد شعراء الفروسية الغزلين ، وأغانى دانتى ومن سبقه من الشعراء الإيطاليين ، والتصوير المنسجم الذى يطالع الإنسان فى المسلاة الإلهية ، كل هذا خلف وراءه تراثا من الفن الأدبى ؛ كما أن النماذج الأدبية اليونانية واللاتينية القديمة قد نقلت إلى پترارك رقة من الذوق والتفكير ، وصقلا وتأدبا فى الحديث وفى الأسلوب ،

أورثهما يتارك من بعده أسرة تجمع أفرادها من دول مختلفة كلهم عباقرة الحضر جاءوا فى سلسلة متصلة الحلقات من إرزمس إلى أناتول فرانس . وكانت ثورة فى الفن قد بدأت حين هجر چيتو الصرامة الصوفية التى انطبعت بها الفسيفساء البيزنطية لكى يدرس الرجال والنساء فى مجرى حياتهم الحقة وظرفهم الفطرى .

لقد كانت كل الطرق فى إيطاليا تؤدى إلى النهضة .

obeikandl.com